دراسات منهجية هادفة
حول الأصول الثلاثة
الله - الرسول - الإسلام



أربعة أجزاء معا

سعيد حوى

الجزء الأول

طبعة شرعية مزيدة ومنقحة

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون : ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الثانية

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المقـــدمة

١ – الإسلام دين المرسلين والنبيين جميعا، من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التي بها ختم الله الرسالات، وقد أكد الله في القرآن هذا المعنى تأكيداً تاماً، فذكر على لسان نوح قوله: ﴿ **وأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ منَ الْمُسْلمينَ** ﴾ [يونس: ٧٢] وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلمَيْن لَكَ** ﴾ [البقرة: ١٢٨] وفي وصية يعقوب لأولاده ﴿ **إنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٢] وعن موسى عليه السلام ﴿ **فَعَلَيْه تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسْلمينَ** ﴾ [يونس: ٨٤] وفي معرض الحديث عن التوراة ﴿ **يَحْكُمُ بهَا النَّبيُّونَ الَّذينَ أَسْلَمُوا** ﴾ [المائدة: ٤٤] وعن يوسف عليه السلام: ﴿ **تَوَفَّني مُسْلمًا وَأَلْحقْني بالصَّالحينَ** ﴾ [يوسف: ١٠١] وعن سحرة فرعون وقد آمنوا بموسى ﴿ **رَبَّنَا أَفْرغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلمينَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وعن حواريي عيسى ﴿ **آمَنَّا باللَّه وَاشْهَدْ بأَنَّا مُسْلمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٥٢] وعن ملكة سبأ وقد آمنت ﴿ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ** ﴾ [النمل: ٤٤] وفي دعاء الرجل الصالح ﴿ **وَأَصْلحْ لي في ذُرِّيَّتي إنّي تُبْتُ إلَيْكَ وَإنّي منَ الْمُسْلمينَ** ﴾ [الأحقاف: ١٥] وقد ورد في الحديث الصحيح (والأنبياء إخوة أبناء علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) أخرجه الشيخان وأبو داود، قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مّنَ الدّين مَا وَصَّىٰ به نُوحًا وَالَّذي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا به إبْرَاهيمَ وَمُوسَىٰ وَعيسَىٰ أَنْ أَقيمُوا الدّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فيه** ﴾ [الشورى: ١٣].

٢ – والإسلام في الأصل معناه الاستسلام لله في أمره ونهيه على لسان الوحي فمن أسلم وجهه وقلبه لله في كل أمر فهو المسلم، ولما كان النبيون والمرسلون أكثر الناس لله استسلاما، فقد كانوا بذلك أول المسلمين ﴿ **قُلْ إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتي للَّه رَبّ الْعَالَمينَ * لا شَريكَ لَهُ وَبذَلكَ أُمرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلمينَ** ﴾ [الأنعام:

١٦٢ – ١٦٣] ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبدون تسليم واستسلام لله فى حكمه فلا إسلام ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وحكم الله إنما يعرف بواسطة الوحى الثابت، إذا بلغنا إياه الرسول الصادق، فإذا ما كان هذا فإن منطقية الإنسان أن يستسلم لأمر الله ذلك لأنه ما دام الإنسان من خلق الله، وما دام علم الله محيطاً بكل شىء، وما دام الله هو الحكيم، فمقتضى عبودية الإنسان أن يستسلم له، وتقتضى سنن الحياة أن يستسلم الإنسان لله، لأن الله أعلم بها وبالإنسان.

٣ – ولما كان صلاح الإنسان باستسلامه لله، فإن الله لم يترك أمة من الأمم إلا وقد أرسل لها رسولاً ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال عليه السلام: (أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله). ونفهم من هذا وهم الذين يتصورون أن الرسل لم يرسلوا إلا إلى بعض الأمم، وبعض المناطق. فالحقيقة خلاف هذا، وإن كنا لا نستطيع الجزم بمعرفة الرسول إلا إذا ورد الوحى الثابت بذكره.

فمثلاً: الفرس يعتقدون أن لهم نبيا اسمه – زرادشت – ونحن نعتقد أن الفرس قد أرسل لهم رسول بالآية القرآنية وبأثر ابن عباس « أن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية » ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن – زرادشت – هذا نبى وعلى هذا ما تذكره بقية الأمم عن أنبيائها مما لم يذكره القرآن.

٤ – والإسلام يطلق على معنيين:

(أ) على نفس النصوص التى يوحى بها الله مبينا دينه.

(ب) وعلى عمل الإنسان فى إيمانه بهذه النصوص واستسلامه لها.

والملاحظ أن الإسلام بالمعنى الأول يختلف سعة وشمولاً من رسول إلى رسول، مع اتفاقه بالمبادىء والأصول. فالإسلام الذى أنزل على موسى أوسع مما أنزل على نوح، لأن الله ذكر عن التوراة ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وإسلام محمد ﷺ أوسع من إسلام أى رسول سابق، لأن

الرسل السابقين جميعا بعثوا لأقوامهم خاصة، والرسول عليه السلام بعث للناس جميعا، فاقتضى ذلك أن يكون إسلامه أشمل وأوسع من كل رسالة سابقة، وقد وصف الله القرآن بقوله: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل: ٨٩].

٥ – وبذلك تم بناء النبوة والرسالة: فهدانا الله لسنن الأنبياء والمرسلين السابقين ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠] ﴿ **وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٦] وأكمل لنا ما ينبغي أن يكمل ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ﴾ [المائدة: ٣] وقال عليه السلام (مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين) أخرجه الشيخان. وبهذا الكمال والتمام أصبحت البشرية كلها مطالبة به، فنسخ بذلك كل شرع سابق ولن يتنزل بعد ذلك شرع لاحق، إذ بمحمد ﷺ ختمت الرسالة ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩] فمن لم يتبع محمداً ﷺ فهو هالك ضال.

(والذى نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) أخرجه مسلم.

﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ [النساء: ١١٥].

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وفى الأصل فإن الإسلام الذى بعث به الرسل السابقون. قد نسي، أو حرف أو بدل وطمست معالم الحق فيه، واستقر الباطل عند أهله، وفى عقائدهم، وعباداتهم

وسلوكهم، وإذا علمنا أنه لا يوجد الآن أى كتاب دينى فى العالم غير القرآن وحديث الرسول ﷺ الصحيح له سند متصل أدركنا أن الإنسانية إذا أرادت الإسلام لربها، ليس أمامها، إلا اتباع محمد ﷺ. وليست مختارة فى ذلك. فإن الله لا يقبل غيره.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

٦ – والإسلام الذى دعا إليه رسول الله ﷺ يعرف من الكتاب والسنة المعتمدة عند علماء نقد الروايات. وهذا الإسلام هداية كاملة للإنسان والناس. فإن الله عز وجل جعله كاملاً وشاملاً بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بين حكمها فيه إباحة أو حرمة، أو كراهة، أو سنية، أو وجوباً، أو فريضة، سواء فى ذلك شئون العقيدة، أو العبادة، أو السياسة، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو الحرب أو السلم، أو التشريع إلى آخر ما يتصوره الإنسان من شئون الإنسان. قال الله تعالى واصفا كتابه: **﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾** [النحل: ٨٩] وقال عنه: **﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾** [الأعراف: ١٤٥] وما لا يعرف من الكتاب والسنة صراحة يعرف استنباطا، يعرفه مجتهدو الأمة الإسلامية.

فقد بينت فى الكتاب والسنة قضايا العقيدة، وقضايا العبادة، وقضايا المال، وقضايا الاجتماع، وقضايا الحرب والسلم، وقضايا التشريع والقضاء، وقضايا العلم والتعليم والثقافة، وقضايا الحكم والسلطان. وقد عبر عن ذلك فقهاؤنا بقولهم: اعلم أن مدار أمور الدين على الاعتقادات والآداب والعبادات والمعاملات والعقوبات.

ويدخل فى الاعتقادات قضايا: الحكم، والسلطان، **ويدخل فى الآداب قضايا الأخلاق، والعبادات خمسة**: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، **والمعاملات خمسة**: المعاوضات المالية والمناكحات والمخاصمات والأمانات والتركات. **والعقوبات خمسة**: القصاص وحد السرقة والزنا والقذف والردة.

٧ – وقد عرف الرسول ﷺ الإسلام تعريفات كثيرة، لم يفهم كثير من الناس مقصود رسول الله ﷺ منها إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أحيانا يعرف الكل بالجزء تبياناً لأهمية الجزء كقوله عليه الصلاة والسلام: (الحج عرفة) فالمعروف أن الوقوف بعرفة ليس كل الحج بل هو جزء منه ولكنه عبر عنه به لتبيان أهميته. فكما

يخطىء خطأ عظيماً إذا تصور الإنسان أن الحج كله هو الوقوف بعرفات كذلك يخطىء الذى يتصور الإسلام أنه بعض أجزائه إذا عرفه بها رسول الله ﷺ وسنذكر هذه التعاريف لنعرف مضمونها ومحلها:

التعريف الأول: – عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ. خمس صلوات فى اليوم والليلة: فقال هل على غيرهن؟ قال: لا إلا أن تطوع وذكر له الزكاة فقال هل على غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع فأدبر وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال عليه السلام: «أفلح إن صدق – أو دخل الجنة إن صدق» أخرجه الستة إلا الترمذى وعند أبى داوود: «أفلح وأبيه إن صدق».

التعريف الثانى: – وقال معاوية بن حيدة: وإنى سألتك بوجه الله تعالى بم بعثك الله إلينا؟ قال: بالإسلام. قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة. كل المسلم على المسلم محرم أخوان نصيران لا يقبل من مشرك بعد ما أسلم عمل أو يفارق المشركين إلى المسلمين) أخرجه النسائى.

التعريف الثالث: – أخرجه الخمسة إلا البخارى عن رسول الله ﷺ قال: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً).

هذه تعاريف أجمعها الأخير وهى كلها إنما عبرت بالجزء عن الكل، لتبيان أهمية هذا الجزء، بدليل الحديث الصحيح الآخر الذى اعتبر هذه الخمسة أركاناً للإسلام. قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه ابن عمر: (أن الإسلام بنى على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان).

فقد ذكر هذا الحديث أن بناء الإسلام يقوم على هذه الأركان الخمسة فإذن هذه الخمسة هى ركائز الإسلام وليست كل الإسلام وإن كان الأساس عادة من جنس البناء.

عندما يقول القائل: أن هذا البيت بنى على دعائم أربع يعنى هذا أن هناك دعائم وفوق الدعائم بناء. وعندما يفهم إنسان من هذا الكلام إنه لا يوجد إلا الدعائم يكون مخطئا، كذلك الذى يتصور أن الإسلام كله هو أركانه هذه الخمسة يكون مخطئا جدا، ويكفى لكى يعرف خطأه أن يفتح القرآن ليرى القرآن قد ذكر غير

هذه الأشياء الخمسة فذكر أخلاقا، وذكر اقتصاداً، وذكر اجتماعاً، وذكر سياسة، وذكر سلماً، وذكر حرباً، وذكر خيرا، وذكر شرا . . . ويكفى كذلك ليعرف خطأه أن يفتح كتاب فقه ليرى فيه عبادات، ومعاملات، وقضاءاً، وجهاداً، وإرثاً، وزواجاً، ويكفى كذلك ليعرف خطأه أن يفتح كتاب حديث جامع كصحيح البخارى ليرى غير العقائد والعبادات أحكام بيع وشراء، وأحكام عقود، وأحكام سياسة واجتماع وأخلاق .

إذن هذه الخمسة، أركان الإسلام التى يقوم عليها بناؤه وليست كل الإسلام .

وإذن فالإسلام أساس وبناء : الأساس هو الأركان، والبناء هو أحكام الإسلام فى قضايا البشر . إنك تجد إذا درست الإسلام . أن للإسلام منهاجه السياسى المستقل حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى موضوع الأمة، والوطن، والرئاسة العليا، وطريقة الشورى، والقضاء، والأجهزة التنفيذية، والتقسيمات الإدارية . . . إلخ .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الاجتماعى المستقل . حيث ترى فيه نظرة الإسلام المنفردة إلى الإنسان وإلى الرجل وإلى المرأة، وإلى تنظيم الأسرة، والحياة الاجتماعية ومفاهيمها إلى آخر ذلك .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الأخلاقى المستقل، حيث تجد طريقا أخلاقيا واضحاً كاملاً شاملاً راقياً واقعياً، لم يبق فيه جانب من جوانب الحياة إلا وقد دلك فيه على أنظف سلوك وأطهره .

وإذا درست الإسلام وجدت منهاجه التعليمى المستقل الذى يعمر الدنيا ولا ينسى الآخرة، ورأيت جوانب هذا المنهاج متكاملة لا نقص فيها ولا عوج ولا إفراط فيها ولا تفريط .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه العسكرى فى الأهداف والتطلعات والتعبئة والتنفيذ والتجريب والأسس والمفاهيم والقواعد .

وإذا درست الإسلام وجدت أن له منهاجه الاقتصادى المستقل سواء فى ذلك تنظيمه المستقل لقضية الملكية أو لخزينة الدولة، أو لحل المشاكل الاقتصادية الاجتماعية أو العلاقات الاقتصادية بين دولته وبقية الدول . .

وهكذا لا نجد قضية من قضايا الوجود البشرى إلا وللإسلام فيها حكم . مجموع هذه الأحكام هى بناء الإسلام الذى يقوم فوق أركانه .

أن هذا ما ينبغى أن تفهمه من حديث ابن عمر (إن الإسلام بنى على

خمس..) وعلى ضوء هذا الحديث ينبغي أن نفهم الأحاديث الأخرى وهذا مقتضى قول الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

٨ – هذا الإسلام كلف الله به البشرية حتى يستقيم أمرها فى دنياها لأخراها، إلا أن النفس البشرية بطبيعتها لا ترغب فى التكاليف والقيود التى تحد من أهوائها وشهواتها ونزواتها وحريتها، وإن كان ذلك لصالحها، لذلك فقد فرض الله على أهل الحق الذين آمنوا به، والتزموا به أن يحملوا الإنسانية على الخضوع لسلطانه، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد.

الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، حتى يقوم الإسلام فى المجتمع الإسلامى. والجهاد من أجل فرض سلطان شريعة الله على العالم خارج حدود الوطن الإسلامى. قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذه الثلاثة: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. هى المؤيدات البشرية لقيام الإسلام، وهى غير المؤيدات الربانية التى مظهرها عقوبات الفطرة فى الانحراف عن الإسلام، أو العقوبات الربانية في الدنيا والآخرة. لذلك فقد دخلت هذه الثلاثة فى بعض تعريفات السيد الرسول ﷺ للإسلام مع الأركان لأهميتها.

روى البزار عن رسول الله ﷺ قال: (الإسلام ثمانية أسهم. الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، وحج البيت سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهى عن المنكر سهم، والجهاد سهم، وقد خاب من لا سهم له).

وروى الحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسليمك على أهلك، فمن انتقص شيئا منهن فهو سهم من الإسلام يدعه ومن تركهن فقد ولى الإسلام ظهره).

إن المعروف كلمة عامة تشمل كل شىء طلب فى الشريعة أو أبيح. سواء كان فريضة، أو واجبا، أو سنة، أو مباحاً والمنكر كلمة تشمل كل ما لم تجزه الشريعة، أو أمرت الناس بالاحتراس منه، أو الانتهاء عنه، ويدخل فى ذلك الحرام والمكروه فالمعروف يشمل أركان الإسلام وبناء الإسلام.

والمنكر يشمل الإنحراف عن الإسلام أركاناً وبناءً.

ومهمة المسلمين إبقاء الإسلام قائما. ولذلك كان عنوان كون السلطة إسلامية. هو هذا:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١].

إقام الصلاة رمز على أن دولتهم دولة عبادة لله.

وإيتاء الزكاة رمز على أن دولتهم دولة عدالة ربانية.

والأمر بالمعروف رمز على أن الخير كله فى دولتهم موجود.

والنهى عن المنكر رمز على أن الشر كله فى دولتهم مقهور.

وهذا كله رمز على أن بناء الإسلام قائم فى أسسه وبنيانه.

وعلى ضوء ما تقدم فإن التعريفين الأخيرين اللذين مرا معنا آنفاً، إنما عرفا الإسلام كذلك بأجزاء مهمة فيه، ولم يذكرا الإسلام كله. لأن الإسلام كما رأينا أشمل من هذا كله. وإنما ذكر أحدهما الأركان، وزاد عليها المؤيدات البشرية لقيام الإسلام، لتبيان أهمية الأركان والمؤيدات بالنسبة للمسلم، وذكر الآخر الأركان ومؤيدين من مؤيدات الإسلام وأدباً من أداب المسلم داخل بيته لتبيان أهمية هذه المعانى، وعظم مكانتها فى الإسلام، وليست كل الإسلام كما رأينا.

ومن هذا القبيل حديث عمر رضى الله عنه الذى يقول فيه: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد: أخبرنى عن الإسلام فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه قال: فأخبرنى عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت فأخبرنى عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال: فأخبرنى عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل قال: فأخبرنى عن أماراتها قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة – وليس عند مسلم العالة – رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا – هذا لفظ مسلم – وعندهم فلبثت ثلاثا ثم قال: ياعمر أتدرى من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) أخرجه مسلم والترمذى والنسائى.

إن كلمة (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) فى الحديث جعلت بعضهم

يفهم أن الدين الإسلامى كله هو هذه القضايا وهذا خطأ فى الفهم. فإن القاعدة الأصولية أن النكرة فى سياق النفى تعم. أما المعرفة فى سياق الإثبات فلا تعم فكون السيد الرسول قال (يعلمكم دينكم) لا يعنى هذا أنه يعلمكم الدين كله كلياته وجزئياته. وإنما تصدق الكلمة ولو علمنا بعض ديننا. فلو كان إنسان يقرأ كتاب فقه. فسألناه ماذ ا تفعل فقال أدرس الإسلام لكان صادقاً مع أن الإسلام أوسع من كتاب فقه أو لو كان يقرأ باب فقه، فسألناه ماذا تقرأ فقال أقرأ الفقه. لكان صادقاً مع أنه يقرأ باباً من الفقه. وكذلك الحديث. ولو تأمل الإنسان الحديث بشكل آخر. يرى أن الإحسان إيمان وإن كان أعلى درجاته كما ورد فى الحديث (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت) وأركان الإيمان الستة داخلة فى الشهادتين كما سنرى. فالحديث إذن فصل الركن الأول من أركان الإسلام بشكل واسع. والأركان كما رأينا هى جزء الإسلام وليست كل الإسلام:

وإذن نفهم من كل ما ذكرنا:

١ – أن الإسلام عقيدة تتمثل بالشهادتين وأركان الإيمان.

٢ – وأن الإسلام عبادة تتمثل بالصلاة والزكاة والصوم والحج.

وأن هذه وهذه أركان الإسلام.

٣ – وأن الإسلام بناء يقوم فوق هذه الأركان، يتمثل بمناهج الحياة فى الإسلام: المنهاج السياسى، والاقتصادى، والعسكرى، والأخلاقى، والاجتماعى، والتعليمى و...

٤ – وأن للإسلام مؤيدات هى طريق قيامه. تتمثل بالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. وهذه المؤيدات هى غير المؤيدات الربانية المتمثلة بعقوبة الفطرة، وعقوبة القهر الإلهى فى الدنيا، والمتمثلة فى الجنة والنار فى الآخرة.

فالإسلام إذن – عقيدة وعبادة ومناهج حياة ومؤيدات.

الإسلام	مؤيدات	الجهاد – الأمر بالمعروف – النهى عن المنكر – حكم وعقوبات.
	بناء	مناهج حياة: – منهاج سياسى – منهاج اقتصادى – منهاج عسكرى – منهاج تعليمى – منهاج أخلاقى – منهاج اجتماعى.
	أركان	عبادات: صلاة – زكاة – صوم – حج. عقيدة: – الشهادتان: الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر.

٩ – ويقابل الإسلام الجاهلية. فما من جزء من الإسلام إلا ويقابله جاهلية. يؤيد هذا قول رسول الله ﷺ لأبى ذر عندما تصرف فى قضية تصرفاً غير إسلامى: (إنك امرؤ فيك جاهلية) وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فالستر إسلام وما قابله جاهلية. وقول عمر (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية).

وإنما كان الإسلام بفروعه كلها يقابل الجاهلية. لأن كل جزء من الإسلام إنما هو أثر عن علم الله المحيط، وكل ما يقابله من فكر وسلوك إنما هو جاهلية، لأنه أثر عن محدودية علم الإنسان، وتغلب أهوائه وشهواته عليه. بحيث يرى الجمال قبحا والقبح جمالا.

فالإسلام هو الكمال المحض، والجاهلية هى النقص المحض، والإنسان مخير أن يسلك أحد الطريقين والجزاء أمامه قال تعالى: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٣].

وقد يلتبس على بعض الناس أنهم يرون عند من يسيرون على طريقة الجاهلية بعض كمال يظهر فى سلوكهم. أو طريقة حياتهم، أو فى بعض أنظمتهم وتعليل ذلك: أنه قد يختلط ما هو من الإسلام بنظام الجاهلية فيظهر حسن ما هو من الإسلام فيه، فيتعلق الجاهل بهذا النظام كله لجهله بحقيقة الإسلام، ولو أنه عرف الحق لأدرك أن الإسلام محاسن هذا النظام دون مساوئه، مع ضم كل حسن إلى هذه المحاسن، ليتمحض الخير كله فى أجمل ما يمكن أن يكون.

ووجود شىء من الإسلام فى نظام الجاهلية شىء طبيعى كأثر من آثار العقل الذى أعطاه الله للإنسان وأثر عن النفخة الروحية التى جعلت الإنسان خليفة على أرض الله ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾ [الحجر: ٢٩] بحيث يستطيع معرفة ما هو طيب وجميل فى التمدن الإنسانى والحياة الإنسانية، ولكن كما قلنا سابقا أن القوى الأخرى الموجودة فى الإنسان، وعدم إحاطة العقل بكل شىء تمنع الإنسان من الوصول الكامل إلى كل كمال فى الحياة الإنسانية. فالهوى، والشهوة، والضعف البشرى أمراض لا يسلم منها حتى القليل إلا من استنار بنور الوحى.

ونؤكد مرة ثانية أننا عندما قلنا: أن العقل يرى حسن بعض الأشياء لم نعن أن العقل وحده يستطيع أن يبصر الحسن والخير بحيث لا يشك فى ذلك، قد يبصر ولكنه يبقى محدودا، والذى يؤكد لنا حقيقة الإبصار أو عدمه هو الوحى. أن الذى

يعلم الخير كله، والشر كله هو الله وحده. لقد نفخ الله فى هذا الإنسان من روحه، فأصبح الإنسان عنده إمكانية المعرفة، ولكنها المعرفة الفرعية والمحدودة القابلة للوهم والخطأ، أما الله فغير محدود ولا يتوهم ولا يخطىء.

وليس كلامنا هذا فيما يقع تحت التجربة، ويتوصل إليه بالبرهان إذ كل ما يقع تحت التجربة ويتوصل إليه بالبرهان يقره الإسلام سلفا وهو إسلام. وإنما كلامنا فى السلوك الإنسانى بحيث تنتظم قوانينه وسننه كانتظام سنن الكون.

إن كل عضو من أعضاء الإنسان يستنزف جهود دارس مختص فترة من الزمن، وأنواع الخلايا فى كل عضو تستنزف جهود كثيرين، والنفس البشرية، والعواطف، والحياة، والإحساسات، والعلاقات، كل ذلك يحتاج إلى فترة طويلة من الزمان ليصبح الإنسان مختصا فى جزء منها.

وعوامل الوراثة ما يقدم الأب للأبناء، وعوامل الأرض، والمناخ، والمجتمع، ثم الحياة الاجتماعية فى تعقيدها ثم... ثم... أن من يدرس فرعاً من هذه الفروع لا يستطيع أن يرسم طريقاً كاملاً للإنسان كإنسان، وللبشر كبشر ويستحيل أن يحيط إنسان بكل شىء.

ومجموعة المختصين يبقى كل إنسان منهم جاهلاً بما عند الآخرين، فيصدرون حكمهم ويبقى ناقصا، فالله هو الهادى للإنسان، ومظهر هدايته على الأرض دينه الإسلام الذى تبقى البشرية فى ضلال إن لم تعتصم به.

وبعد هذا نقول:

فى العقائد إذن إسلام وجاهلية... وفى العبادات إسلام وجاهلية... وفى الأخلاق والآداب إسلام وجاهلية... وفى السياسة إسلام وجاهلية... وفى التعليم إسلام وجاهلية... وفى الحرب والسلم والاجتماع إسلام وجاهلية...

وفى كل القوانين إسلام وجاهلية...

وحيثما كان الحق فهو إسلام، وحيثما كان الباطل فهو جاهلية، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله، وحيثما كان العكس فتلك جاهلية، والمصلحة الحقيقية للإنسان لا تعرف إلا بشرع الله وجاهلية العقائد والعبادات أخطر أنواع الجاهلية، لذلك فإن الله عز وجل قد يغفر لمن تخلق ببعض الجاهلية مع الاعتقاد الصحيح، ولكنه لا يغفر أبدا حتى لمن تخلق بكل أخلاق الإسلام ما دامت عقائده وعباداته عقائد الجاهلية وعباداتها. ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

والله عز وجل قد أنزل هذا الإسلام كاملاً فمن أخذه كله فهو المسلم، ومن أخذ قسمًا وقصر فى جزء فقد خلط بين إسلام وجاهلية ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** ﴾ [التوبة: ١٠٢] فما دام معتقدا بكل الإسلام فهو مسلم إن أتبع السيئة توبة، فهو إلى خير وإن أصر على السيئة فهو فاسق ولكنه مسلم. والمفروض أن يكون كل مسلم قد تخلى عن أخلاق الجاهلية كلها، وتحلى بالإسلام كله، وأن تكون الأمة الإسلامية مظهراً كاملاً للنظام الإسلامى، وأن تحاول إبادة نظام الجاهلية فى العالم، ولكن الإنحراف الخطير الذى حدث فى نظام الحكم الإسلامى فأخرجه عن كونه حكما وخلافة على منهاج النبوة، إلى ملك عضوض قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون[1] ملكا عضوضا». جعل نظام الجاهلية يتسلل إلى الأمة الإسلامية مبتدئا بنظام الحكم (تنقض عرى الإسلام عروة عروة فأولها نقضا الحكم وآخرها الصلاة).

وبدلاً من أن يكون الإسلام هو المهاجم ليجتث نظام الجاهلية. فإنه أصبح المهاجم يحاول نظام الجاهلية اجتثاثه، وما أكثر الدعوات الجاهلية فى أرض الإسلام اليوم وما أكثر ما استجاب لها المسلمون: التبشير والشيوعية، وفلسفة الإباحة والحزبيات السياسية غير ذات الاتجاه الإسلامى، والعمالة للكافرين باسم التقدمية، ومحاربة الرجعية وشعارات من هذا القبيل، ولم يوجد كل هذا فجأة بل أوجد بحنكة ودهاء، واستطاعت هذه الدعوات الجاهلية أن توجد – كل منها – لنفسها قواعد فى كل مكان فى العالم الإسلامى وأن يكون لكل منها أتباع من المسلمين أنفسهم.

وساعد على التمكين لهذا كله: ١ – جهل المسلمين بالإسلام. ٢ – انتقال السلطة السياسية إلى المستعمرين أولاً، ثم إلى من يدين بالولاء الفكرى أو السياسى أو هما معا لهم. فكان غزواً جاهلياً منظماً، إدواته كل ما عرف العالم من وسائل الدعاية، حتى أصبح الإسلام غريبا، فكان لا بد من كتابة شاملة عنه.

ولهذا فسنكتب فى هذا البحث أربعة فصول:

١ – الفصل الأول – أركان الإسلام.

٢ – الفصل الثانى – المنهاجان الاجتماعى والأخلاقى فى الإسلام.

---

(١) وفى رواية: «الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك» رواه أحمد والترمذى وأبو يعلى وابن حبان عن سفينة وهو صحيح.

٣ – الفصل الثالث – المناهج العامة.

٤ – الفصل الرابع – مؤيدات الإسلام.

من أجل أن يتضح الإسلام كله. وتصبح صورة المسلم عنه كاملة، بحيث يعيه وعيا صحيحا، فيعلم أن هذا الإسلام لا يقبل شركة، ويعلم من هو المسلم كل المسلم، ويعلم كيف يجعل سلوكه فى الحياة جميعاً إسلامياً، ويعلم ما يترتب على هذا السلوك. وماذا يترتب على انحرافه عنه، ويعلم بعد هذا كله ماهية التكليف الذى كلف الله به عباده بعد أن عرف فى البحثين السابقين المكلف: وهو الله ومبلغ التكليف: رسول الله ﷺ.

وإنما جعلنا المنهاج الاجتماعى، والمنهاج الأخلاقى فى فصل واحد لارتباطهما ببعضهما، وجعلنا المنهاج السياسى والعسكرى والتعليمى والمالى وغيرها فى فصل واحد لعدم انفكاك قضايا الحرب والثقافة والمال عن المنهاج السياسى. أما فصل المؤيدات فقد تحدثنا به عن المؤيدات الغيبية المتمثلة بالعقوبات الربانية فى الدنيا والآخرة وعن المؤيدات الفطرية، ونرجو ألا تنتهى من دراسة هذا البحث إلا وقد استكملت جوانب من المعرفة بدين الله وشريعته وجمعت إلى ذلك سلوكاً مستقيماً وعملاً صالحاً.

* * *

الفصل الأول

الأركـــان

إن الأركان الخمسة هى الأسس العملية والنظرية للإسلام كله، فالشهادتان هى الأساس العملى والنظرى لكل ما عداها من الإسلام فما لم يشهد الإنسان أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله لا يلتزم بالإسلام ولذلك كانت الشهادتان الركن الأول لأنها أساس لأركان الإسلام من ناحية وأساس للإسلام كله من ناحية أخرى، أما الأركان الأربعة الأخرى فكل منها أساس لجانب من جوانب الإسلام، فالصلاة هى الأساس العملى والنظرى للجانب العبادى كله. فالله عز وجل أهل العبادة وحده وقد شرع لنا أن نعبده بالذكر والدعاء وقراءة القرآن، والذكر منه التسبيح، والتمجيد، والاستغفار وكل هذه المعانى تجدها فى الصلاة المفروضة فلا تستقيم عبادة الإنسان لله إلا إذا كان يقيم الصلاة. إذ هى الركن الذى تدور حوله شئون العبادة. والزكاة هى الأساس العملى والنظرى للجانب المالى فى الإسلام. فالمال فى الإسلام مال الله والإنسان مستخلف فيه، فعليه أن يأخذه بالطريق الذى حده الله، وينفقه فى الطريق الذى حده الله، والزكاة هى الأساس العملى والنظرى لهذه الجوانب كلها فى شئون المال، فما لم يستسلم الإنسان لله بالزكاة لن يسلم لله فى بقية جوانب جمع المال وإنفاقه. والصوم هو الأساس العملى والنظرى لجانب ضبط النفس على أمر الله فى الإسلام، فالله عز وجل جعل مدار دخول الجنة على موضوع ضبط النفس فقال: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وقال: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وضبط النفس يشمل ضبطها عن شهواتها المحرمة، وعن نزواتها الباطلة، ويشمل ضبطها على الأخلاق العظيمة الطيبة، ويشمل ضبطها على أمر الله كله. والصوم هو الأساس العملى والنظرى لهذا كله، إذ هو فطم للنفس عن أهم شهواتها التى هى مباحة فى الأصل، لتتدرب النفس بعد ذلك على الانضباط فى بقية الشئون. والحج هو الأساس العملى والنظرى لجانب بذل الجهد والمال فى سبيل الله خالصا، إذ جعل الله عز وجل الجهاد بالنفس والمال من فرائضه، والحج مران عملى على هذا، وقد أشار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى هذا بقوله: (لكن أفضل الجهاد حج مبرور).. كما أن الحج هو الأساس

العملى والنظرى للمنهاج السياسى الإسلامى الذى مظهره أن المسلمين أمة واحدة كما أن الحج هو الأساس النظرى والعملى لاستسلام الإنسان لله، ولو لم يعرف حكمة الأمر والنهى، فالحج رمز على هذا الاستسلام العملى لله فيما أمر ونهى بصرف النظر عن معرفة الحكمة من الأمر والنهى.

وكل ركن من هذه الأركان يخدم بقية الأركان فى تحقيق جوانب الإسلام. فالحج عبادة من أعلى العبادات، والصوم كذلك، والزكاة كذلك، وكلها تخدم قضية شعور المسلم بأخوته لبقية المسلمين، وكلها تخدم قضية ضبط النفس، وكلها تخدم قضية الاستسلام لله، دون نقاش، أو تذمر، أو معرفة للحكمة.

وهى كلها تربط الإنسان بالجوانب الكاملة لبناء الإسلام، لذلك لا يستطيع المسلم أن يتصور قيام بناء الإسلام دون قيام أركانه، فالبناء يستمد قوته من قوة أساسه، فكلما كان الأساس أقوى كان البناء أشد إحكاماً، وكلما كان الأساس منهاراً كلما ساعد هذا على انهيار البناء. لذلك كانت القاعدة فى التربية الإسلامية، إحكام أمر الأركان ليبنى عليها بناء الإسلام كله بعد ذلك، وأنها لظاهرة غير منطقية محاولة إحكام أمر البناء بلا أركان، أو إحكام أمر الأساس ثم لا يبنى عليه بناؤه الذى كان الأساس أساساً من أجله.

لذلك جعلنا الفصل الأول فى هذه الدراسة دراسة الأركان، ثم اتبعناها بدراسة بقية جوانب الإسلام، وها نحن نبدأ بدراسة الأركان ركناً ركناً.

* * *

الركن الأول : الشهادتان

(أ) نظرة تحليلية :

١ - قال عليه الصلاة والسلام : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل).

وفي رواية : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله تعالى جسده على النار) وقال - فيما يرويه أبو ذر - : (أتاني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة. قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق. قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق. ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذر).

وقال : (ثنتان موجبتان) فقال رجل : يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال : (من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة).

٢ - مما سلف نعلم أهمية هذا الركن بالنسبة للإسلام كله، فإذا كان الإسلام لا يقوم بلا أركان، فإن الإسلام وأركانه الأربعة لا يقوم بلا شهادتين، بل لا يكون موجودا أصلاً، فالشهادتين بالنسبة للإسلام كله، كالروح بالنسبة للجسد، فكما أن كل ذرة من ذرات الجسد لا تكون بها حياة إلا بالروح، فكذلك (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي حياة كل جزء من أجزاء الإسلام، فأي عمل يعمله الإنسان من الإسلام لا يكون نابعاً من هذا الأصل يعتبر ميتا وهو في ميزان الله معدوم. ولذلك فإن الكافرين لا قيمة لأعمالهم عند الله ولو كانت صالحة، لأنها ميتة. يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً** ﴾ [الفرقان : ٢٣] وحتى المسلم إذا عمل عملاً مهما كان صالحاً، ولم يكن عمله فيه روح الشهادتين، فإنه يكون غير مقبول (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه). (من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة).

٣ - قال تعالى مادحا صحابة رسول الله ﷺ : ﴿ **وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** ﴾ [الفتح : ٢٦] وكلمة التقوى هي الشهادتان، وبدونها فلا تقوى ولا

قبول عمل ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] لذلك كان أعظم ما نحرص عليه، وأعلى ما نحاول الاتصاف به، وأهم ما نتعب فى سبيل تحصيله، وأجمل ما نعلم، هو أن نحقق أمر الله فى هذه الكلمة : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] فإذا ما تحققنا بها، واستقرت عليها قلوبنا، كان من آثار ذلك كل ثمر طيب ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٤، ٢٥] .

٤ – وهاتان الشهادتان لا تنفصل إحداهما عن الأخرى، أن شهادة أن لا إله إلا الله تتممها شهادة أن محمداً رسول الله، إذ شهادة لا إله إلا الله كما سنرى تقتضى سلوكا معينا، ومعانى معينة، ولها حقوق، وعلى صاحبها واجبات، ولصاحبها جزاؤه، وعلى تاركها عقابه، وهذا كله لا يعرف إلا بواسطة الرسول الذى قامت كل الأدلة الصحيحة المعقولة والمنقولة على أنه رسول الله حقا، لذلك كان التلازم كاملاً بين شهودى لا إله إلا الله وشهودى أن محمداً رسول الله، ويتضح هذا أكثر إذا عرفنا معنى (أشهد أن لا إله إلا الله) .

٥ – مادة كلمة الإله فى اللغة (الألف واللام والهاء) وقد جاء فى معاجم اللغة من هذه المادة ما يلى :

ألهت إلى فلان	: إذا سكنت إليه واطمأننت
أله الرجل يأله	: إذا استجار
أله الرجل إلى الرجل	: اتجه إليه لشدة شوقه
أله الفصيل بأمه	: إذا ولع بها
أله إلاهة وألوهة	: عبد
لاه يليه ليها	: إذا احتجب

والقاعدة فى اللغة العربية أن الكلمات ذات المادة الواحدة، يكون فيما بينها ترابط، ولو أننا تأملنا مدلولات المادة السابقة، فإننا نجد الترابط واضحاً فيما بينها. فأنا لا أستجير إلا بمن أسكن إليه وأحبه وأعتبره أقوى منى، بحيث يقدر على إجارتى، وعلى هذا فالإله يسكن إليه ويطمأن، ويستجار به، ويستعاذ به ويحب ويشتاق إليه ويعبد، وهو محتجب، فإذن فنحن عندما قلنا : لا إله إلا الله – دخل فى ذلك ضمناً معان معينة : فكأننى قلت : لا مطمأن إليه، ولا مستجار به، ولا محبوب، ولا معبود، إلا الله وفعلا فإن القرآن علمنا أن هذه المعانى كلها من خصائص الذات الإلهية فقال :

١ - ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] .

٢ - ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] وحب رسول الله يأتى تبعاً لحب الله بإذنه (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبونى لحب الله إياى وأحبوا آل بيتى لحبى) .

٤ - ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٤ - ٦٦] .

وإذا كانت من معانى كلمة الإله - المعبود - وهو المعنى الأساسى فيها فماذا تعنى هذه الكلمة؟ أن مادة عبد فى اللغة هى (العين والباء والدال) ويأتى منها :

١ - العبد هو المملوك وهو خلاف الحر، وقد ورد فى القرآن : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] أى اتخذتهم عبيداً .

٢ - العبادة هى الطاعة مع الخضوع وقد ورد فى القرآن : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ [يس : ٦٠] أى ألا تطيعوه ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] أى خاضعون مطيعون .

٣ - المعبد هو المكرم المعظم قال الشاعر :

*** أرى المال عند الباخلين معبدا ***

٤ - عبد به : لزمه فلم يفارقه .　　　٥ - ما عبدك عنى : ما حبسك عنى .

ولو أنك تأملت هذه المعانى المختلفة لهذه المادة . فإنك تجد الترابط التام بينها، فلا يحبس إلا من يستعبد نوع عبودية، ومن استعبدت له لزمته وعظمته وأطعته، وخضعت له وتنازلت له عن كثير من حريتى، فصارت كلمة المعبود تتضمن معانى : المالك المطاع المعظم المستمسك به . فعندما قلت : لا معبود إلا الله، أى لا مالك لى ولغيرى، ولا مطاع ولا معظم ومستمسك به إلا الله، وإذا تأملنا القرآن وجدنا فعلاً أن من خصائص الذات الإلهية هذه المعانى :

١ - ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٣] ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

٢ - ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] وطاعة الرسول طاعة الله على الحقيقة ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

٣ - ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٤ - ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

والعبودية تقابلها الربوبية، والمعبود هو الرب الإله ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ فماذا تعنى كلمة الرب: إن مادة كلمة الرب فى اللغة الراء والباء المضعفة ويأتى منها هذه الاستعمالات:

١ - رب الولد ورب الضيعة، إذا رباه، وأصلح شأنه، أو تعاهدها وأصلح أمرها ورعاها.

٢ - رب فلان قومهم، وربيت القوم: إذا حكمتهم وأسستهم فانقادوا لك واجتمعوا عليك ومنه (فلان يرب الناس) أى يجمعهم ويسمى مكان الاجتماع (المرب).

يقول النابغة:

(تخب إلى النعمان حتى تناله فدى لك من رب تليدى وطارفى)

٣ - رب الدار ورب الإبل: أى صاحبها ومالكها ومنه الحديث: (أرب غنم أم رب إبل)؟ أى: أمالك..؟ ويلاحظ الترابط بين هذه المعانى، فالمالك يسوس، ويتعهد ويصلح ويربى، والمربى له سلطان وسيطرة ونوع ملك. وبالنسبة للذات الإلهية، فالله على الحقيقة هو مالك كل شىء، وهو السيد، والحاكم، وليس لغيره من سيادة ولا حاكمية، وهو خلق وربى، وأصلح شأن الكون ويرعاه.

وإذا تأملنا القرآن نجد أن القرآن ذكر أن هذه كلها خصائص الذات الإلهية ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧] ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

* * *

من هذا التحليل يتبين أن المسلم عندما قال (لا إله إلا الله) فكأنه قال : لا مطمأن إليه، ولا مستجار به، ولا محبوب ولا معبود، ولا مالك ولا مطاع، ولا معظم ولا معتصم به، ولا سيد ولا حاكم إلا الله، فالتوكل عليه واجب، والاستجارة بغيره باطلة، ومحبته فريضة، ومحبة غيره لا تكون إلا بإذنه، ومعانى العبادة والعبودية لا تقدم إلا له، وهو مالكى وحده، فلا أطيع غيره إلا بإذنه، وهو المستحق للتعظيم، فبه أعتصم، وهو الذى له حق السيادة المطلقة على البشر، والحاكمية المطلقة عليهم، فهو مصدر الأمر والنهى، وهو مصدر التحليل والتحريم، وهو مصدر التشريع، فلا سلطة تشريعية إلا له، فهو ذو الجلال والكمال جل جلاله وسبحانه ولا إله غيره.

وأى إخلال بواحدة من هذه، بحيث يعطيها الإنسان لغير الله بدون إذنه جهل بما لله من حق. ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣٣].

* * *

وبعد أن عرفنا معنى لا إله إلا الله يبقى أن نعرف معنى كلمة : أشهد.

أشهد فى اللغة تأتى على ثلاثة معان وقد استعملها القرآن بكل من المعانى الثلاثة فهى تأتى :

١ - من المشاهدة وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال : ﴿ **يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [المطففين : ٢١].

٢ - من الشهادة وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال : ﴿ **وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [الطلاق : ٢].

٣ - من الحلف وقد استعملها القرآن بهذا المعنى فقال : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً** ﴾ [المنافقون : ١، ٢] فاعتبر كلمتهم نشهد يمينا وقال فقهاء الحنفية من قال : أشهد فقد حلف. وفيما بين هذه المعانى ترابط تام : فالإنسان يحلف إذا شهد ويشهد إذا شاهد وفى الحديث (على مثل الشمس فاشهد أو دع).

وعلى هذا فشهادة الإنسان أنه لا إله إلا الله لا تعتبر إلا باستجماع هذه المعانى :

١ - مشاهدة أنه لا إله إلا الله بالعقل والقلب.

٢ - الشهادة على هذا باللسان.

٣ – أن تكون الشهادة جازمة لا تردد فيها. فيها جزم على ما يحلف عليه فمن لم يشهد بلسانه أنه لا إله إلا الله عناداً وكبراً فهو كافر، ومن لم يشهد عقله وقلبه أنه لا إله إلا الله أو كان متردداً فى ذلك فهو منافق إن نطق بالشهادتين بلسانه، وكافر إن لم ينطق.

٦ – ولا يقوم الإنسان بلوازم لا إله إلا الله إلا إذا عرف رسوله، وتعرف بواسطة رسوله على الطريق الذى ينبغى أن يسلكه لتحقيق لوازم هذه الوحدانية، وبدون ذلك يبقى الإنسان فى متاهات الضلال الكبير البعيد الذى لا يعرف معه سيراً ينسجم مع وضعه، ويصل به إلى الغاية مبتدئا من بداياتها الصحيحة. لذلك كانت معرفة الرسول تعدل معرفة الله، إذ لا يقوم أحد بحق الله، إلا إذا عرف رسوله، ولذلك حكم الله بكفر من لم يؤمن بالرسول الذى يرسله للناس بعد أن أقام الحجة على الناس برسالته ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ولذلك كان شعار الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ولا تغنى واحدة منهما عن الأخرى.

وقد رأينا فى البحثين السابقين (الله) و (الرسول) الأدلة الكثيرة التى دلتنا على الله وصفاته العليا وعلى الرسول ﷺ وعلى كونه رسول الله حقا، وكتبنا الفصول الكثيرة لهذا من أجل أن يطمئن عقل الإنسان وقلبه بمشاهدة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فيقولها لسانه بعد اقتناع قلبه، ويقوم بلوازم ذلك عن ارتياح.

* * *

هاتان الشهادتان يستتبع الإيمان بهما، والنطق بهما، الإيمان بالغيب الذى أخبرنا عنه الله بواسطة رسوله، والذى أمهاته:

الإيمان: بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وهذه الستة يطلق عليها أركان الإيمان وهى كلها داخلة ضمناً بالشهادتين، فمن التزم بالشهادتين كان التزامه بها فى الحقيقة التزاماً بكل أركان الإيمان الأخرى، ولذلك يكتفى من الإنسان إذا أراد الدخول بالإسلام أن يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ويعتبر بذلك من المؤمنين إن كان صادقاً، مع أنه لم يتلفظ بكل أركان الإيمان وما ذلك إلا لأن أركان الإيمان كلها داخلة فى الشهادتين وتفصيل ذلك:

أن : أشهد أن لا إله إلا الله، ذكرت صراحة الركن الأول من أركان الإيمان وهو الإيمان بالله.

أن : أشهد أن محمداً رسول الله ذكرت صراحة الإيمان بالرسول، والإيمان بالرسول يقتضى أن نؤمن بكل رسول لله أخبرنا عنه هذا الرسول الصادق، فدخل الركن الثانى من أركان الإيمان بذلك وهو الإيمان بالرسل.

ومن آمن بالله والرسل آمن بالملائكة الذين أخبر عنهم الرسل ومنهم الواسطة بين الله والرسل فى تبليغ أمر الله ووحيه.

ومن آمن بالله والرسل والملائكة آمن بالوحى، ومن آمن بالوحى آمن بالكتب.

ومن آمن بالله والرسل والملائكة والكتب آمن باليوم الآخر، لأن وجود اليوم الآخر فرع عن الإيمان بقدرة الله وعدله وفضله، وقد أخبرنا عنه الرسل، وذكر بالكتب، والإيمان بالقدر فرع الإيمان بالله فمن آمن بعلم الله الأزلى وإرادته التى خصصت الأشياء بالوقوع، وقدرته التى أبرز بها الأشياء، وكون ذلك قد كتب فى كتاب فقد آمن بالقدر.

ولما كان الإخلال بركن من أركان الإيمان إخلالا بالشهادتين أصلاً، ولما كان جودة الفهم لمضامين هذه الأركان يؤثر على جودة الفهم للشهادتين كان لابد أن نتحدث عن هذه الأركان حديثا يوضح بعض نواح فيها فنقول:

١ - أن بعض المفسرين ذهب إلى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة: ٣] هو الإيمان بأركان الإيمان الستة على اعتبار أن مرجع أمر الغيب كله إليها. فلو قال قائل: إن الله والملائكة واليوم الآخر والقدر غيب، أما الكتب والرسل فليسا كذلك، فكيف اعتبرنا الإيمان بهما إيمانا يغيب؟ فالجواب: إننا اعتبرنا الإيمان بالرسل من الإيمان بالغيب من حيث اتصال الوحى بهم، وهو غيب، وصفة الرسالة لا تقوم إلا به، فإيماننا بهذه الصفة إيمان بغيب، واعتبرنا الإيمان بالكتب من الإيمان بالغيب من حيث الاعتقاد بأنها منزلة عليهم من الله وذلك أمر غيبى.

ولو قال قائل: أن الغيوب أكثر من ذلك فالجواب: مرجع كل الغيوب إلى هذه الأمهات، فالإيمان بمعجزات الرسل السابقين، فرع الإيمان بالقرآن، والإيمان بالجن فرع الإيمان بالقرآن، والإيمان بالسموات السبع التى فيها الملائكة والجنة والبيت المعمور وسقفها العرش، وإليها تصعد أرواح المؤمنين، وإليها عرج برسول الله ﷺ فرع الإيمان بالقرآن كذلك، والإيمان بعالم البرزخ بعد الموت، فرع الإيمان باليوم الآخر وهكذا فما من غيب إلا وهو راجع إلى هذه الأركان الستة.

٢ – هذه الأركان الستة ذكرها الحديث الصحيح حديث جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان والذى مر معنا فى المقدمة.

وقد ذكرها القرآن كذلك، ذكر خمسة منها مجتمعة فى أكثر من مكان، وذكر السادس منفرداً فى أكثر من مكان قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ [النساء: ١٣٦] ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد: ٢٢] ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ [التوبة: ٥١] ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ [الرعد: ٣٩] ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ [يس: ١٢]. ولعل السبب فى ذكر الأركان الخمسة وحدها فى الآيتين دون ذكر القدر لأن القدر داخل فى الإيمان بالله، إذ معنى القدر على الحقيقة: علم الله القديم بما هو كائن، وتخصيص الإرادة الإلهية لهذه الكائنات بالوقوع، وإبراز القدرة ما تعلقت به الإرادة، وكتابة هذا كله فى اللوح المحفوظ الذى هو كذلك من عالم الغيب، والله أعلم بنوعيته، وإذن فمرجع الإيمان بالقدر إلى الإيمان بالله، ومع أنه داخل فى الإيمان بالله، فقد ذكر وحده فى آيات كما رأينا.

٣ – والإيمان هذا لا يقبل التجزئة، فمن كفر بركن منه فقد كفر بالكل، ومن كفر بمضمون قطعى فى ركن فقد كفر بالكل: فلا بد من إيمان بالله. ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿ **مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولابد من الإيمان بالرسل ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]. (والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل

النار) ولابد من إيمان بالملائكة قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨].

ولابد من الإيمان بالكتاب ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٧] وقال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١].

ولابد من إيمان باليوم الآخر ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٩، ٣٠].

ولابد من إيمان بالقدر قال عليه السلام : (لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر) وقال : (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره) وإذن فلابد من إيمان بمجموع الأركان الستة فمن جزأ كفر.

٤ – وكما أن أركان الإيمان لا تقبل التجزئة فإن لكل ركن شمولاً، وله تفصيلات لا يعتبر الإيمان إيماناً إلا إذا صدق بها كلها : فالإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، على الوجه المراد له، من تنزيه وكمال قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩]. ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣١] ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٨] ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧].

والإيمان بالملائكة : يشمل الإيمان بصفاتهم : من حيث إنهم لا ذكور ولا إناث، وقد خلقوا من نور، فهم أجسام نورانية، لا يأكلون ولا يشربون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وبمن ذكر منهم تفصيلا : كجبريل، وميكال، وملك الموت، ونافخ الصور، وحملة العرش، وخازن النار، والحفظة، والزبانية . . وبالباقي إجمالاً.

وبوظائفهم من تبليغ للرسل، أو كتابة لأعمال الإنسان، أو كتابة رزقه وأجله، وشقاوته وسعادته، وسؤال الميت فى قبره، وقبض الأرواح، والنفخ فى الصور، وحراسة ابن آدم، وعبادة، وحضور المساجد وأماكن العبادة، ومجالس الخير والذكر، إلى غير ذلك من الوظائف الموكلة لبعضهم، مما هو مفصل فى الكتاب والسنة.

والإيمان بالكتب: يشمل الإيمان بأفرادها **والصحف**: صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داوود، وإنجيل عيسى وقرآن محمد ﷺ ثم بكون القرآن ناسخاً لها، ثم بكونه كله حقاً لا باطل فيه، ثم بكونه لم يغير منه حرف ولم يبدل، فهو هو الذى أنزل على محمد ﷺ الموجود الآن بين أيدينا، فلا تبديل، ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقصان، مع الإعجاز، ثم تحريم ما حرم، وتحليل ما أحل، ثم اعتقاد الهدى فيه، والضلال فى غيره إن كان مخالفاً لمضمونه، فأنظمته هى الحق الذى لا حق غيره، سواء فى ذلك العقائد، أو العبادات، أو مناهج الحياة، أخلاقاً وتشريعاً، وآداباً، ثم أن الغيوب التى أخبرنا عنها حق. من جن، إلى ملائكة، إلى سموات إلى جنة إلى نار إلى رسل، إلى معجزات، إلى يوم آخر، إلى ساعة. إلى.. ثم الإيمان بالسنة إذ أنها موضحة القرآن ومبينته، و لا يفهم القرآن تفصيلاً إلا بها، ويستتبع ذلك أن نفهم الكتاب والسنة ضمن الحدود التى حدتها نصوص الكتاب والسنة، وأجود فهم للكتاب والسنة فهم المجتهدين فى الأمة الإسلامية لسعة علمهم، ثم الإيمان بأن القرآن هو كتاب الهداية الربانية إلى قيام الساعة، وأى طلب للهدى أو الحق أو الخير أو العدل فى غيره ومن غيره ضلال وردة وكفر.

والإيمان بالرسل: يشمل الإيمان بهم تفصيلاً إذا فصل القرآن، وإجمالاً إذا أجمل. ثم الإيمان يصدقهم وعصمتهم وفطانتهم وتبليغهم. وكونهم صادقين يعنى أن كلامهم هو الأساس الذى يقاس عليه غيره، وغيرهم إذا خالفهم كاذب، وكونهم فطناء يعنى أنهم المثل الأعلى فى العقل، وكل خروج عن الاقتداء بهم انحطاط عقلى.

والإيمان باليوم الآخر: يشمل الإيمان بأشراط الساعة ومقدماتها من تغير بعض الظواهر الكونية، أو ظهور خوارق للعادات على يد الدجال الذى يدعى الألوهية، أو مجىء يأجوج ومأجوج إلى الأرض المقدسة، كما يشمل الإيمان بالبرزخ بعد الحياة الدنيا، كما يشمل الإيمان بالساعة، ونفخة الصور، الأولى والثانية، والجنة والنار، إلى آخر ما ذكر فى الكتاب والسنة فى هذا الموضوع.

ثم لهذا الإيمان حد أدنى هو التصديق الذى لا شك فيه ولا شبهة، بل هو جزم،

وما لم يكن كذلك فلا إيمان إذ أن الله وصف المؤمنين فقال: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾ [الحجرات: ١٥] فإذا كان ريب فذلك النفاق قال تعالى: ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ [البقرة: ١٠] عن المنافقين، وقد فسر المرض بالشك، وهذا الجزم يجب أن يكون فى جميع أفراد المؤمن بهم كما مر فى الفقرة السابقة.

ونحب أن نذكر هنا أن المقصود بالشك غير الوسوسة، فالشك نفاق وكفر، والوسوسة إذا ألقاها الشيطان ورفضها قلبنا، فلا قيمة لها، ومثال ذلك رجل قال لمؤمن يا كافر أو دعاه إلى كفر فإن مجرد هذا لا يؤثر على إيمان المؤمن إلا إذا استجاب للدعوة، وكذلك إلقاء الشيطان. فإنه لا قيمة له ما دام القلب مطمئناً بالإيمان، وعلى هذا نفهم حديث أبى هريرة (إن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذلك صريح الإيمان. وفى رواية: الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة) وكذلك نفهم حديث ابن مسعود: قالوا يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به قال: ذلك محض الإيمان، ولعله كان صريح الإيمان ومحض الإيمان لأن القلب كرهه واشمأز منه ومثل هذه الحالة دليل على حياة القلب، إذ إحساس القلب بالوسوسة وكراهيته لها علامة على صحة هذا القلب ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وإذن حالة الوسوسة تختلف عن حالة الشك التى تتنافى مع الإيمان، والتصديق الذى هو الحد الأدنى الذى لا يقبل الله الإنسان بدونه.

٥ - وفوق الحد الأدنى الذى لا يقبل الله الإنسان بدونه درجات يتفاوت الناس فيها، وبقدر ارتفاع الإنسان فى هذه الدرجات تكون تقواه أكثر كمالاً. وهذه أمثلة توضح تفاوت الناس فى درجات الإيمان فى كل ركن من أركانه.

(أ) أدنى درجات الإيمان بالله التصديق، ثم الأعلى من هذا، الشعور بالذات الإلهية وصفاتها والإقبال عليها (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله شاهدك حيثما كنت) (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وأوضح ما يكون الإيمان بأسماء الله عندما يكون الإنسان متحققاً بهذه الأسماء، فمن كان فى قلبه رحمة عرف اسم الله الرحيم أكثر، هذا مع ملاحظة أن رحمة الله ليس كمثلها شىء، وعندما يكون الإنسان

كريما يكون أقرب إلى معرفة اسم الله الكريم، هذا مع ملاحظة الفارق بين المقامين، وفارق كبير بين اثنين أحدهما يذكره كل شيء بالله ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٥٠] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [الحج: ٦٣] والآخر لا يتذكر الله إلا لماما.

(ب) والإيمان بالملائكة حده الأدنى التصديق، وقد تصفو قلوب بعض الناس فيرون ما آمن به الآخرون غيبا ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢] عن أسيد بن حضير قال: (بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت فقرأ فجالت فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريباً منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبى ﷺ فقال: أو تدرى ما ذاك؟ قال: لا. قال: تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس لا تتوارى منهم) أخرجه البخارى. وعن البراء (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر له ذلك فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن) أخرجه الشيخان.

وعن حنظلة بن الربيع الأسيدى كاتب رسول الله ﷺ قال: (لقينى أبو بكر فقال: كيف أنت؟ فقلت: نافق حنظلة فقال: سبحان الله ما تقول؟ فقلت: نكون عند النبى ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً قال: والله إنى لأجد مثل هذا فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وذكرا له ذلك فقال: والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طريقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة – ثلاث مرات –) أخرجه مسلم والترمذى (المعافسة: المعالجة والممارسة والملاعبة).

فهذه حالات يصفو بها الإيمان ويرتفع إلى درجة الشهود، ويأتى بعد ذلك شعور واستحياء، ومعرفة ومراعاة لطبيعة الملائكة.

(جـ) والإيمان بالكتب أدناه ما رأينا من تصديق وشمول، ويأتى بعد ذلك مقامات قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ

يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١] ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢] ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣] ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩] فالناس مع كتاب الله يتفاوتون، فبعضهم يقرأ ويتأثر وكأنه يتلقاه عن الله وحيا، ويعمل وكأنه مخاطب به وحده، وآخرون ليسوا كذلك ولكل مقام.

(د) وأدنى الإيمان بالرسل ما رأيناه، وبعد ذلك يتفاوت الناس، فمن إيمان يملأ القلب مع الحب والإعجاب والتعظيم والتأسي لدرجة تذوب معها الشخصية لتفنى بشخصية السيد الرسول ﷺ إلى أقل من ذلك (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) وفى رواية (أحب إليه من ماله وأهله).

(هـ) والإيمان باليوم الآخر كذلك فمن المؤمنين من يعيش فى اليوم الآخر دائما، ذكرى، وتحسساً، ومحاسبة لنفسه، وصوغا لحياته كلها بما يتفق مع مواقفه التى أخبرنا عنها الرسول الصادق الأمين، فيزهد فى الدنيا. ويقبل على الآخرة إقبال من لا يرى غيرها، وفى حياة الرسول ﷺ والصحابة مثل كامل لمن أراد أن يعرف أهل الآخرة المؤمنين بها، ثم الناس بعد ذلك درجات.

(و) ويتفاوت الناس كذلك في الإيمان بالقدر، فمنهم من يحقق الحكمة فيه ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣] فيرضى عن الله فى كل حال، ويتوكل على الله فى كل أمر، شعاره ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا ﴾ [التوبة: ٥١] مطمئن على رزقه. مطمئن على أجله، لا يخشى فى الله شيئا ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

(ز) والحقيقة أن هذه الدرجات العالية من الإيمان أو الأقل منها، كلها ترجع إلى مقدار جزم الإنسان بالشهادتين، وعمق الإيمان بها فى قلبه ويقينه، فكلما كانت الشهادتان أكثر تمكناً فى القلب كلما ارتفعت درجات الإيمان بأركانها كلها.

والحقيقة كذلك أن كل أعمال الإيمان والإسلام إنما هى لتحقيق الشهادتين فى قلب المسلم، شعوراً وإحساساً لذلك كانت الشهادتان بداية الإسلام ونهايته، ولذلك ورد فى الحديث: (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله جسده على النار).

(ب) من مضامين وآثار (لا إله إلا الله .. محمد رسول الله) :

١ – أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ينبع عنها منهج للحياة. يقول صاحب معالم فى الطريق تحت عنوان: (لا إله إلا الله منهج حياة) ما يلى:

« العبودية لله وحده هى شطر الركن الأول فى العقيدة الإسلامية المتمثل فى شهادة أن لا إله إلا الله. والتلقى عن رسول الله ﷺ فى كيفية هذه العبودية – هو شطرها الثانى، المتمثل فى شهادة أن محمداً رسول الله.

والقلب المؤمن المسلم هو الذى تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لهما، فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج .. ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات .. والتشريعات والتوجيهات الإسلامية .. إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه.

والمجتمع المسلم هو الذى تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعا، لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلما. ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها أو عدة قواعد أجنبية عنها: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [يوسف: ٤٠] ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠] – هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا فى تحديد كلمة الفصل فى قضايا أساسية فى حقيقة هذا الدين وفى حركته الواقعية كذلك.

إنه يفيدنا أولاً فى تحديد (طبيعة المجتمع المسلم) .

ويفيدنا ثالثا فى تحديد (منهج الإسلام فى مواجهة المجتمعات الجاهلية) .

ويفيدنا رابعاً فى تحديد (منهج الإسلام فى مواجهة واقع الحياة البشرية) . وهى قضايا أساسية بالغة الخطورة فى منهج الحركة الإسلامية قديما وحديثا .

أن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هى أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده فى أمره كله . . هذه العبودية التى تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله . وتتمثل هذه العبودية فى التصور الاعتقادى، كما تتمثل فى الشعائر التعبدية كما تتمثل فى الشرائع القانونية سواء . فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه : ﴿ **وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** ﴾ [النحل : ٥١ ، ٥٢] .

وليس عبدا لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله – معه أو من دونه – ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] وليس عبدا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله، عن الطريق الذى بلغنا الله به، وهو رسول الله ﷺ ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى : ٢١] ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧] .

هذا هو المجتمع المسلم، المجتمع الذى تتمثل العبودية لله وحده فى معتقدات أفراده وتصوراتهم كما تتمثل فى شعائرهم وعباداتهم، كما تتمثل فى نظامهم الاجتماعى وتشريعاتهم . . وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود، لتخلف ركنه الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ولقد قلنا أن العبودية لله تتمثل فى (التصور الاعتقادى) . . فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادى الإسلامى . . إنه التصور الذى ينشأ فى الإدراك البشرى من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الربانى، والذى يتكيف به الإنسان فى إدراكه لحقيقة ربه ولحقيقة الكون الذى يعيش فيه – غيبه وشهوده – ولحقيقة الحياة التى ينتسب إليها – غيبها وشهودها – ولحقيقة نفسه . . أى لحقيقة الإنسان ذاته . . ثم

يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعا. تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده. وتعامله مع الكون ونواميسه، ومع الاحياء وعواملها، ومع أفراد النوع البشرى وتشكيلاته تعاملا يستمد أصوله من دين الله - كما بلغها رسول الله ﷺ - تحقيقا لعبوديته لله وحده فى هذا التعامل.. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله.

فإذا تقرر أن هذا هو (المجتمع المسلم). فكيف ينشأ هذا المجتمع؟ ما منهج هذه النشأة؟.. أن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله.. لا تدين بالعبودية لغير الله فى الاعتقاد والتصور.. ولا تدين بالعبودية لغير الله فى العبادات والشعائر... ولا تدين بالعبودية لغير الله فى النظام والشرائع. ثم تأخذ بالفعل فى تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة.. تنقى ضمائرها من الاعتقاد فى ألوهية أحد غير الله - معه أو من دونه - وتنقى شعائرها من التلقى عن أحد غير الله - معه أو من دونه. وتنقى شرائعها من التلقى عن أحد غير الله - معه أو من دونه.

عندئذ - وعندئذ فقط - تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذى أقامته مسلما كذلك.. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله - على النحو الذى تقدم - فإنهم لا يكونون مسلمين.. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلما.. وذلك أن القاعدة الأولى التى يقوم عليها الإسلام والتى يقوم عليها المجتمع المسلم - وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - لم تقم بشطريها..

وإذن فإنه قبل التفكير فى إقامة نظام اجتماعى إسلامى، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام.. ينبغى أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله - فى أية صورة من صورها التى أسلفنا - وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله فى جماعة مسلمة.. وهذه الجماعة التى خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقاداً وعبادة وشريعة هى التى ينشأ منها المجتمع المسلم، وينضم إليها من يريد أن يعيش فى هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التى تتمثل فيها العبودية لله وحده.. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وهكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التى أقامت المجتمع المسلم الأول.. وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم.

إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله – معه أو من دونه – إلى العبودية لله وحده بلا شريك ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية.. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلى القديم ومواجه له بعقيدة جديدة ونظام للحياة جديد يقوم على أساس هذه العقيدة وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها.. شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقد ينضم المجتمع الجاهلى القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامى الجديد وقد لا ينضم. كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه وإن كانت السنة جرت بأن يشن المجتمع الجاهلى حرباً لا هوادة فيها على طلائع هذا المجتمع فى مرحلة نشوئه – وهو أفراد أو مجموعات – أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلا – وهو ما حدث فى تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام إلى محمد عليه الصلاة والسلام بغير استثناء.

وطبيعى أن المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلى القديم: قوة الاعتقاد والتصور. وقوة الخلق والبناء النفسى. وقوة التنظيم والبناء الجماعى. وسائر أنواع القوة التى يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلى ويتغلب عليه. أو على الأقل يصمد له.

ولكن ما هو (المجتمع الجاهلى) وما هو منهج الإسلام فى مواجهته؟

أن المجتمع الجاهلى هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم، وإذا أردنا التحديد الموضوعى قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية فى التصور الاعتقادى وفى الشعائر التعبدية وفى الشرائع القانونية..

وبهذا التعريف الموضوعى تدخل فى إطار (المجتمع الجاهلى) جميع المجتمعات القائمة اليوم فى الأرض فعلا.

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية.. أولاً: بإلحادها فى الله – سبحانه – وبإنكار وجوده أصلاً ورجع الفاعلية فى هذا الوجود إلى (المادة) أو (الطبيعة). ورجع الفاعلية فى حياة الإنسان وتاريخه إلى (الاقتصاد) أو (أدوات الانتاج). وثانيا: بإقامة نظام العبودية فيه للحزب – على فرض أن القيادة الجماعية فى هذا النظام حقيقة واقعة – لا لله سبحانه، ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام من إهدار لخصائص (الإنسان) وذاك باعتبار أن (المطالب الأساسية) له هى فقط مطالب الحيوان. وهى:

الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس، وحرمانه من حاجات روحه (الإنسانى) المتميز عن الحيوان وفى أولها: العقيدة فى الله وحرية اختيارها وحرية التعبير عنها. وكذلك حرية التعبير عن (فرديته) وهى من أخص خصائص (إنسانيته) هذه الفردية التى تتجلى فى الملكية الفردية وفى اختيار نوع العمل والتخصص وفى التعبير الفنى عن (الذات).. إلى آخر ما يميز (الإنسان) عن (الحيوان) أو عن (الآلة)، إذ أن التصور الشيوعى والنظام الشيوعى سواء، كثيراً ما يهبط بالإنسان عن مرتبة الحيوان إلى مرتبة الآلة.

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية – وهى ما تزال قائمة فى الهند واليابان والفلبين وإفريقية – تدخل فيه.. أولا: بتصورها الاعتقادى القائم على تأليه غير الله – معه أو من دونه – وتدخل فيه ثانيا: بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التى تعتقد بألوهيتها كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع، المرجع فيها لغير الله وشريعته. سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ أو استمدتها من هيئات مدنية (علمانية) تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله.. أى أن لها الحاكمية العليا باسم (الشعب) أو باسم (الحزب) أو باسم كائن من كان.. ذلك أن الحاكمية العليا لا تكون إلا لله سبحانه ولا تزاول إلا بالطريقة التى بلغها عنه رسله.

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية فى أرجاء الأرض جميعا.. تدخل فيه هذه المجتمعات أولاً: بتصورها الاعتقادى المحرف الذى لا يفرد الله – سبحانه – بالألوهية بل يجعل له شركاء فى صورة من صور الشرك. سواء بالبنوة أو بالتثليث، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها.

﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٧٣]. ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ** ﴾ [المائدة: ١٨].

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة، ثم تدخل فيه بأنظمتها وشرائعها، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده بالإقرار له وحده بحق الحاكمية واستمداد السلطان من شرعه. بل تقيم هيئات من البشر لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون إلا لله سبحانه.. وقديما وصمهم الله بالشرك والكفر لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار والرهبان يشرعون لهم من عند أنفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣١].

و هم لم يكونوا يعتقدون في ألوهية الأحبار والرهبان ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية. إنما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم بما لم يأذن به الله. فأولى أن يوصموا اليوم بالشرك والكفر وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا أحباراً ولا رهباناً.. وكلهم سواء.. وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة. وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله. ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً. ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها فهي – وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله – تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله. فتدين بحاكمية غير الله. فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها.. وكل مقومات حياتها تقريبا.

والله سبحانه يقول عن الحاكمين: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤] – ويقول عن المحكومين: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ** ﴾ [النساء: ٦٠] إلى ان يقول ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

كما أنه سبحانه قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دونه لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم (مسلمون) لناس منهم واعتبر الله سبحانه

ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى ابن مريم ربًّا يؤلهونه ويعبدونه سواء، فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده. فهى خروج من دين الله.. ومن شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة (علمانيته وعدم علاقته بالدين أصلاً. وبعضها يعلن أنه (يحترم الدين) ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعى أصلاً، ويقولون: إنه ينكر (الغيبية) ويقيم نظامه على (العلمية) باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال[1]. وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله. وكلها سواء فى أنها لا تقوم على العبودية لله وحده..

وإذا تعين هذا فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد فى عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها فى اعتباره.

أن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التى تحملها هذه المجتمعات على اختلافها.. إنها كلها تلتقى فى حقيقة واحدة.. وهى أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده. وهى من ثم تلتقى - مع سائر المجتمعات الأخرى - فى صفة واحدة.. صفة (الجاهلية).

وهذا يقودنا إلى القضية الأخيرة وهى **منهج الإسلام فى مواجهة الواقع البشرى** كله. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان وهنا يدفعنا ما قررناه فى الفقرة الأولى عن (طبيعة المجتمع المسلم). وقيامه على العبودية لله وحده فى أمره كله.

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال - ما الأصل الذى ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة؟ أم هو الواقع البشرى أيا كان؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة.. إن الأصل الذى يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة.. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التى هى ركن الإسلام الأول لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل.. وأن العبودية لله وحده

---

(١) يراجع ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ فى الجزء السابع من الظلال.

مع التلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ثم يتبع إتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر: ٧]. ثم إن الإسلام يسأل: ﴿ **أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ١٤٠].. ويجيب: ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].. ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥].

والذى يعلم – والذى يخلق ويرزق كذلك – هو الذى يحكم.. ودينه الذى هو منهجه للحياة هو الأصل الذى ترجع إليه الحياة.

أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهى تفسد وتنحرف وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلا.

ودين الله ليس غامضا ومنهجه للحياة ليس مائعاً.. فهو محدد بشطر الشهادة الثانى: محمد رسول الله. فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص فى الأصول.. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ولا اجتهاد مع النص. وإن لم يكن هناك نص فهنا يجىء دور الاجتهاد – وفق أصوله المقررة فى منهج الله ذاته لا وفق الأهواء والرغبات. ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ [النساء: ٥٩].

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة.. فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه: هذا شرع الله.. إلا أن تكون الحاكمية العليا معلنة وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى من البشر. وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريد الله ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعى سلطاناً باسم الله. كالذى عرفته أوروبا ذات يوم باسم (الثيوقراطية) أو (الحكم المقدس) فليس شىء من هذا فى الإسلام. وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ﷺ وإنما هنالك نصوص معينة هى التى تحدد ما شرع الله.

إن كلمة (الدين للواقع) يساء فهمها ويساء استخدامها كذلك. نعم أن هذا الدين للواقع ولكن أى واقع..؟ إنه الواقع الذى ينشئه هذا الدين نفسه وفق منهجه منطبقا على الفطرة البشرية فى سوائها ومحققا للحاجات الإنسانية الحقيقية فى شمولها.. هذه الحاجات التى يقررها الذى خلق والذى يعلم من خلق: ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤].

والدين لا يواجه الواقع أيا كان ليقره ويبحث له عن سند منه وعن حكم شرعى

يعلقه عليه كاللافتة المستعارة إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغى منه ما يلغى وينشىء واقعًا غيره إن كان لا يرتضيه، وواقعه الذى ينشئه هو الواقع. وهذا هو المعنى بأن الإسلام: (دين للواقع).. أو ما يجب أن تعنيه فى مفهومها الصحيح، ولعله يثار هنا سؤال: أليست مصلحة البشر هى التى يجب أن تصوغ واقعهم؟ ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذى يطرحه الإسلام ويجيب عليه:

- ﴿ **أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ١٤٠].

- ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إن مصلحة البشر متضمنة فى شرع الله كما أنزله الله وكما بلغه عنه رسول الله.. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم فى مخالفة ما شرع الله لهم فهم.. أولا: (واهمون) فيما بدا لهم. ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ** ﴾ [النجم: ٢٣ - ٢٥].

وهم.. ثانيا (كافرون).. فما يدعى أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله. ثم يبقى لحظة على هذا الدين ومن أهل هذا الدين.

٢ - وإن لا إله إلا الله تجعل أهلها على انسجام مع نواميس الكون كله. يقول صاحب معالم فى الطريق تحت عنوان: (شريعة كونية) ما يلى:

«إن الإسلام حين يقيم بناءه الاعتقادى فى الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده: ويجعل هذه العبودية متمثلة فى الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء باعتبار أن هذه العبودية الكاملة لله وحده - فى صورتها هذه - هى المدلول العملى لشهادة أن لا إله إلا الله.. وأن التلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ وحده هو المدلول العملى كذلك لشهادة أن محمداً رسول الله.

إن الإسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الأساس بحيث تمثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله منهج الحياة فى الإسلام وتصور ملامح هذا المنهج وتقرر خصائصه. إن الإسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذى يفرقه عن جميع الأنظمة الأخرى التى عرفتها البشرية.. إنما يرجع إلى أصل أشمل فى تقريره عن الوجود لا عن الوجود الإنسانى وحده وإلى منهج للوجود كله لا منهج للحياة الإنسانية وحدها.

أن التصور الإسلامى يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله. اتجهت

إرادة الله إلى كونه فكان : وأودعه الله - سبحانه - قوانينه التى يتحرك بها والتى تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها كما تتسق بها حركته الكلية سواء : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠]. ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢]. أن وراء هذا الوجود الكونى مشيئة تدبره وقدراً يحركه وناموساً ينسقه. هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها وينظم حركتها جميعاً فلا تصطدم ولا تختل ولا تتعارض ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة - إلى ما شاء الله - كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التى تدبره والقدر الذى يحركه والناموس الذى ينسقه بحيث لا يخطر له فى لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة أو أن يتنكر للقدر أو أن يخالف الناموس.. وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد إلا أن يشاء الله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤].

والإنسان من هذا الوجود الكونى والقوانين التى تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذى يحكم الوجود كله.. لقد خلقه الله - كما خلق هذا الوجود - وهو فى تكوينه المادى من طين هذه الأرض وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنساناً إنما رزقه الله إياه مقدراً تقديراً وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمى للناموس الطبيعى الذى سنه الله له - رضى أم أبى - يعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه - فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنينا وجوده - وهو يولد وفق الناموس الذى وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة. وهو يتنفس هذا الهواء الذى أوجده الله بمقاديره هذه ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التى أرادها الله له. وهو يحس ويتألم ويجوع ويعطش ويأكل ويشرب ويمثل الطعام والشراب. وبالجملة يعيش.. وفق ناموس الله عن غير إرادة منه ولا اختيار شأنه فى هذا شأن هذا الوجود الكونى وكل ما فيه فى الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه..

والله الذى خلق هذا الوجود الكونى وخلق الإنسان. والذى أخضع الإنسان لنواميسه التى أخضع لها الوجود الكونى.. هو سبحانه - الذى سن للإنسان (شريعة) لتنظيم حياته الإرادية تنظيما متناسقاً مع حياته الطبيعية. فالشريعة - على

هذا الأساس – إن هى إلا قطاع من الناموس الإلهى العام الذى يحكم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام وينسقها كلها جملة واحدة.

وما من كلمة من كلمات الله ولا أمر ولا نهى ولا وعد ولا وعيد ولا تشريع ولا توجيه.. إلا وهى شطر من الناموس العام وصادقه فى ذاتها صدق القوانين التى نسميها القوانين الطبيعية – أى القوانيين الإلهية الكونية – التى نراها تتحقق فى كل لحظة بحكم ما فى طبيعتها من حق أزلى أودعه الله فيها وهى تتحقق بقدر الله.

و(الشريعة) التى سنها الله لتنظيم حياة البشر هى – من ثم – شريعة كونية بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام ومتناسقة معه.. ومن ثم فإن الالتزام بها ناشىء من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التى تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التى تحكم حياتهم الظاهرة. وضرورة الإلتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان.

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام – ولا حتى بهذا الذى يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له – رضوا أم أبوا – فإنهم – من ثم – لا يملكون أن يشترعوا لحياة البشر نظاماً يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة إنما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر ومدبر أمره وأمرهم وفق الناموس الواحد الذى اختاره وارتضاه،

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجباً لتحقيق ذلك التناسق.. وذلك فوق وجوبه لتحقق الإسلام اعتقادا. فلا وجود للإسلام فى حياة فرد أو حياة جماعة إلا بإخلاص العبودية لله وحده وبالتلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده. تحقيقا لمدلول ركن الإسلام الأول: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وفى تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر. وكما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد.. إنهم – فى هذه الحالة وحدها – يعيشون فى سلام مع الكون وفى سلام مع أنفسهم.. فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه.. وأما السلام مع أنفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته لأن شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة فى يسر وهدوء.. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر فى ارتباط الناس ونشاطهم العام لأنهم جميعاً يسلكون حينئذ وفق منهج موحد هو طرف من الناموس الكونى العام.

كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها وتعرفها فى يسر إلى أسرار هذا الكون والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة فى أطوائه. واستخدام هذا كله وفق شريعة الله لتحقيق الخير البشرى العام بلا تعارض ولا اصطدام. ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر:

﴿ ولَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

[المؤمنون: ٧١]

ومن ثم توحد النظرة الإسلامية بين الحق الذى يقوم عليه هذا الدين والحق الذى تقوم عليه السموات والأرض ويصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ويحاسب الله به ويجازى من يتعدونه.. فهو حق واحد لا يتعدد وهو الناموس الكونى العام الذى أراده الله لهذا الوجود فى جميع الأحوال والذى يخضع له ويؤخذ به كل ما فى الوجود من عوالم وأشياء وأحياء...

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠ - ٢٠].

وفطرة الإنسان تدرك هذا الحق فى أعماقها فطبيعة تكوينه، وطبيعة هذا الكون كله من حوله توحى إلى فطرته بان هذا الوجود قائم على الحق، وأن الحق أصيل فيه، وأنه ثابت على الناموس لا يضطرب ولا تتفرق به السبل ولا تختلف دورته، ولا يصطدم بعضه ببعض ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة، ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة إنما يمضى فى نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديراً.. ومن ثم يقع الشقاق - أول ما يقع بين الإنسان وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن فى أعماقها تحت تأثير هواه وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا الهوى لا من شريعة الله. وعندما لا يستسلم لله استسلام هذا الوجود الكونى الخاضع لمولاه.

ومثل هذا الشقاق يقع بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال. كما يقع بين البشر والكون من حولهم. فتنقلب قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء بدلاً من أن تكون وسائل عمران وأسباب سعادة لبنى الإنسان، وإذن فإن الهدف الظاهر من قيام شريعة الله فى الأرض ليس مجرد العمل للآخرة. فالدنيا والآخرة معاً مرحلتان متكاملتان. وشريعة الله هى التى تنسق بين المرحلتين فى حياة هذا الإنسان وتنسيق الحياة كلها مع الناموس الإلهى العام. والتناسق مع الناموس لا يؤجل سعادة الناس إلى الآخرة بل يجعلها واقعة ومتحققة فى المرحلة الأولى كذلك. ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها فى الدار الآخرة.

هذا هو أساس التصور الإسلامى للوجود كله وللوجود الإنسانى فى ظل ذلك الوجود العام، وهو تصور يختلف فى طبيعته اختلافاً جوهرياً عن كل تصور آخر عرفته البشرية. ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أى تصور آخر فى جميع الأنظمة والنظريات.

إن الالتزام بشريعة الله – فى هذا التصور – هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون. وبين الناموس الذى يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون. ثم ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام والشريعة التى تنظم حياة بنى الإنسان، وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدعيها لنفسه إنسان..

وإلى ضرورة هذا التطابق والتناسق يشير الحوار الذى جرى بين إبراهيم عليه السلام – أبى هذه الأمة المسلمة – وبين (نمرود) المتجبر المدعى بحق السلطان على العباد فى الأرض والذى لم يستطع – مع ذلك – أن يدعى بحق السلطان على الأفلاك والأجرام فى الكون. وبهت أمام إبراهيم عليه السلام. وهو يقول له: إن الذى يملك السلطان فى الكون هو وحده الذى ينبغى أن يكون له السلطان فى حياة البشر ولم يحر جوابا على هذا البرهان.

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وصدق الله العظيم: ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ [آل عمران: ٨٣].

٣ – وأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ينبع عنها ثقافة خاصة وحضارة حقة ويشرح هاتين القضيتين صاحب كتاب (معالم فى الطريق) بفقرتين. الأولى تحت عنوان: (الإسلام هو الحضارة). والثانية تحت عنوان: (التصور الإسلامى والثقافة).

(أ) الإسلام هو الحضارة: الإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات.. مجتمع إسلامى. ومجتمع جاهلى.

(المجتمع الإسلامى) هو المجتمع الذى يطبق فيه الإسلام.. عقيدة وعبادة. وشريعة ونظاماً. وخلقاً وسلوكاً.. و(المجتمع الجاهلى) هو المجتمع الذى لا يطبق فيه الإسلام. ولا تحكمه عقيدته وتصوراته وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه وخلقه وسلوكه..

ليس المجتمع الإسلامى هو الذى يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم (مسلمين). بينما شريعة الإسلام ليست هى قانون هذا المجتمع. وإن صلى وصام وحج البيت الحرام. وليس المجتمع الإسلامى هو الذى يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه – غير ما قرره الله سبحانه وفصله رسوله ﷺ. ويسميه مثلاً (الإسلام المتطور).

(والمجتمع الجاهلى) قد يتمثل فى صور شتى – كلها جاهلية –: قد يتمثل فى صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً جدلياً ويطبق ما يسميه (الاشتراكية العلمية) نظاماً.

وقد يتمثل فى مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى ولكن يجعل له ملكوت السموات ويعزله عن ملكوت الأرض فلا يطبق شريعته فى نظام الحياة ولا يحكم قيمه التى جعلها هو قيما ثابتة فى حياة البشر ويبيح للناس أن يعبدوا الله فى البيع والكنائس والمساجد ولكنه يحرم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله فى حياتهم. وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله فى الأرض التى ينص عليها قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ [الزخرف: ٨٤]. ومن ثم لا يكون هذا المجتمع إسلاميا فى دين الله الذى يحدده قوله: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ [يوسف: ٤٠] وبذلك يكون مجتمعاً جاهلياً ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله.. وفى البيع والكنائس والمساجد.

(المجتمع الإسلامى) – بصفته تلك – هو وحده (المجتمع المتحضر) والمجتمعات الجاهلية – بكل صورها المتعددة – مجتمعات متخلفة.. ولابد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة.

لقد كنت قد أعلنت مرة عن كتاب لى تحت الطبع بعنوان: (نحو مجتمع إسلامى متحضر).. ثم عدت فى الاعلان التالى عنه فحذفت كلمة (متحضر) مكتفيا بأن يكون عنوان البحث – كما هو موضوعه – (نحو مجتمع إسلامى)..

ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائرى (يكتب بالفرنسية) ففسره على أنه ناشىء من (عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام) وأسف لأن هذه العملية – غير الواعية – تحرمنى مواجهة (المشكلة) على حقيقتها. أنا أعذر هذا الكاتب. لقد كنت مثله من قبل.. كنت أفكر على النحو الذى يفكر هو عليه الآن.. عندما فكرت فى الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة.. وكانت المشكلة عندي – كما هى عنده اليوم – هى مشكلة: (تعريف الحضارة).

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية فى تكوينى العقلى والنفسى. وهى رواسب آتية من مصادر أجنبية.. غريبة على حسى الإسلامى.. وعلى الرغم من اتجاهى الإسلامى الواضح فى ذلك الحين إلا أن هذه الرواسب كانت تغبش تصورى وتطمسه. كان تصور (الحضارة) – كما هو فى الفكر الأوروبى– يخايل لى ويغبش تصورى ويحرمنى الرؤية الواضحة الأصيلة.

ثم انجلت الصورة.. (المجتمع المسلم) (هو المجتمع المتحضر) فكلمة (المتحضر) إذن لغو لا يضيف شيئاً جديداً.. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حسى تلك الظلال الأجنبية الغريبة التى كانت تغبش تصورى وتحرمنى الرؤيا الواضحة الأصيلة.

الاختلاف إذن هو على (تعريف الحضارة).. ولابد من إيضاح إذن لهذه الحقيقة.

حين تكون الحاكمية العليا فى مجتمع لله وحده – متمثلة فى سيادة الشريعة الإلهية – تكون هذه هى الصورة الوحيدة التى يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر. وتكون هذه هى (الحضارة الإنسانية) لأن حضارة الإنسان تقتضى قاعدة أساسية من التحرر الحقيقى الكامل للإنسان ومن الكرامة المطلقة لكل فرد فى المجتمع.. ولا حرية – فى الحقيقة ولا كرامة للإنسان – ممثلا فى كل فرد من أفراده – فى مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون.

ولابد أن نبادر فنبين أن التشريع لا ينحصر فقط فى الأحكام القانونية – كما هو المفهوم الضيق فى الأذهان اليوم لكلمة الشريعة – فالتصورات والمناهج والقيم والموازين والعادات والتقاليد.. كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه. وحين يصنع الناس –

بعضهم لبعض – هذه الضغوط ويخضع لها البعض منهم فى مجتمع لا يكون هذا المجتمع متحرراً. إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد – كما أسلفنا – وهو – من ثم – مجتمع متخلف أو بالمصطلح الإسلامى.. (مجتمع جاهلى).

والمجتمع الإسلامى هو وحده المجتمع الذى يهيمن عليه إله واحد ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وبذلك يتحررون التحرر الحقيقى الكامل الذى ترتكز إليه حضارة الإنسان وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له وهو يعلن خلافته فى الأرض عنه ويعلن كذلك تكريمه فى الملأ الأعلى.

وحين تكون آصرة التجمع الأساسية فى مجتمع هى العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة. ويكون هذا كله صادراً من إله واحد تتمثل فيه السيادة العليا للبشر. وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر.. يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما فى (الإنسان) من خصائص.. خصائص الروح والفكر.. فأما حين تكون آصرة التجمع فى مجتمع هى الجنس واللون والقوم والأرض.. وما إلى ذلك من الروابط فظاهر أن الجنس واللون والقوم والأرض لا تمثل الخصائص العليا للإنسان.. فالإنسان يبقى إنساناً بعد الروح والفكر ثم هو يملك – بمحض إرادته الحرة – أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته.. ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه كما أنه لا يملك أن يحدد مولده فى قوم ولا فى أرض فالمجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتى هو المجتمع المتحضر.. أما المجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو المجتمع المتخلف.. أو بالمصطلح الإسلامى.. هو (المجتمع الجاهلى).

والمجتمع الإسلامى وحده هو المجتمع الذى تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية والذى تعتبر فيه العقيدة الجنسية التى تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، والعربى والرومى والفارسى والحبشى وسائر أجناس الأرض فى أمة واحدة ربها الله. وعبوديتها له وحده. والأكرم فيها هو الأتقى. والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم، ولم يشرعه أحد من العباد. وحين تكون (إنسانية) الإنسان هى القيمة العليا فى مجتمع وتكون الخصائص (الإنسانية) فيه هى موضع التكريم والاعتبار. يكون هذا المجتمع متحضراً.. فأما حين تكون (المادة) – فى أية صورة – هى القيمة العليا.. سواء فى صور (النظرية) كما فى التفسير الماركسى للتاريخ أو فى صور (الانتاج المادى) كما فى أمريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التى تعتبر الانتاج المادى قيمة عليا تهدر فى سبيلها القيم والخصائص الإنسانية.. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفا.. أو بالمصطلح الإسلامى.. مجتمعا جاهليا.

إن المجتمع المتحضر.. الإسلامى.. لا يحتقر المادة – لا فى صورة النظرية (باعتبارها هى التى يتألف منها هذا الكون الذى نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه أيضاً) ولا فى صورة (الإنتاج المادى).. فالإنتاج المادى من مقومات الخلافة فى الأرض عن الله – ولكنه فقط لا يعتبرها هى القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص (الإنسان) ومقوماته.. وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته.. وتهدر فيها قاعدة (الأسرة) ومقوماتها.. وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته.. إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة فى الإنتاج المادى.

وحين تكون (القيم الإنسانية) و(الأخلاق الإنسانية) التى تقوم عليها هى السائدة فى مجتمع يكون هذا المجتمع متحضراً. والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيما (متطورة) متغيرة متبدلة لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل. كما يزعم التفسير المادى للتاريخ وكما تزعم (الاشتراكية العلمية).

إنها القيم والأخلاق التى تنمى فى الإنسان خصائص (الإنسان) التى ينفرد بها دون الحيوان والتى تغلب فيه هذا الجانب الذى يميزه ويفرده عن الحيوان. وليست هى القيم والأخلاق التى تنمى فيه وتغلب الجوانب التى يشترك فيها مع الحيوان.

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم (وثابت) لا يقبل عملية التمييع المستمرة التى يحاولها (التطوريون) و(الاشتراكيون العلميون).

عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعرفها هو الذى يحدد القيم الأخلاقية.. إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت.. عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق (زراعية) وأخرى (صناعية) ولا قيم وأخلاق (رأسمالية) وأخرى (اشتراكية). ولا قيم وأخلاق (بورجوازية) وأخرى (صعلوكية) ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلة.. إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية.. إنما تكون هناك – من وراء ذلك كله – قيم وأخلاق (إنسانية) وقيم وأخلاق (حيوانية) إذا صح هذا التعبير – أو بالمصطلح الإسلامى: قيم وأخلاق (إسلامية) وقيم وأخلاق (جاهلية).

إن الإسلام يقرر قيمة وأخلاقية هذه (الإنسانية) – أى التى تنمى فى الإنسان الجوانب التى تفرقه وتميزه عن الحيوان – ويمضى فى إنشائها وتثبيتها وصيانتها فى كل المجتمعات التى يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات فى طور الزراعة أم فى طور الصناعة. وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعى. أو مجتمعات حضرية مستقرة وسواء كانت هذه المجتمعات فقيرة أو غنية. إنه يرتقى صعدا بالخصائص

الإنسانية ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية . . لأن الخط الصاعد فى القيم والاعتبارات يمضى من الدرك الحيوانى إلى المرتفع الإنسانى . . فإذا انتكس هذا الخط - مع حضارة المادة - فلن يكون ذلك حضارة إنما هو (التخلف) أو هو (الجاهلية) .

وحين تكون (الأسرة) هى قاعدة المجتمع . . وتقوم هذه الأسرة على أساس (التخصص) بين الزوجين فى العمل . . وتكون رعاية الجيل الناشىء هى أهم وظائف الأسرة . . يكون هذا المجتمع متحضراً . . ذلك أن الأسرة على هذا النحو - فى ظل المنهج الإسلامى - تكون هى البيئة التى تنشأ وتنمى فيها القيم والأخلاق (الإنسانية) التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة ممثلة فى الجيل الناشىء . . والتى يستحيل أن تنشأ فى وحدة أخرى غير وحدة الأسرة . فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعى) هى قاعدة المجتمع . . حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفى فى الأسرة . . حين تصبح وظيفة المرأة هى الزينة والغواية والفتنة . وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية فى رعاية الجيل الجديد وتؤثر هى - أو يؤثر لها المجتمع - أن تكون مضيفة فى فندق أو سفينة أو طائرة . . حين تنفق طاقتها فى (الانتاج المادى) و(صناعة الأدوات) ولا تنفقها فى (صناعة الإنسانية) لأن الإنتاج المادى يومئذ أغلى وأعز وأكرم من (الانتاج الإنسانى) . . عندئذ يكون هذا هو (التخلف الحضارى) بالقياس الإنسانى أو تكون هى (الجاهلية) بالمصطلح الإسلامى .

وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة فى تحديد صفة المجتمع . . متخلف أم متحضر جاهلى أم إسلامى . . والمجتمعات التى تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية فى هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة مهما تبلغ من التفوق الصناعى والاقتصادى والعلمى . إن هذا المقياس لا يخطىء فى قياس مدى التقدم (الإنسانى) .

وفى المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم (الأخلاقى) بحديث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز (الإنسانى) عن الطابع (الحيوانى) ففى هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية - ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة - رذيلة أخلاقية . . إن المفهوم الأخلاقى يكاد ينحصر فى المعاملات الاقتصادية - والسياسية أحيانا فى حدود (مصلحة الدولة) - ففضيحة كريستين كيلر وبروفيومو الوزير الإنجليزى - مثلا - لم تكن فى عرف المجتمع الإنجليزى فضيحة بسبب جانبها الجنسى . . إنما كانت فضيحة لأن كريستين كيلر كانت صديقة كذلك للملحق البحرى الروسى . . ومن هنا يكون هناك خطر على أسرار الدولة فى علاقة الوزير بهذه الفتاة وكذلك لأنه افتضح

كذبه على البرلمان الإنجليزى والفضائح المماثلة فى مجلس الشيوخ الأمريكى، وفضائح الجواسيس والموظفين الإنجليز والأمريكان الذين هربوا إلى روسيا . ليست فضائح بسبب شذوذهم الجنسى ولكن بسبب الخطر على أسرار الدولة .

والكتاب والصحفيون والروائيون فى المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات : إن الاتصالات (الحرة) ليست رذائل أخلاقية . . الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود، بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت، والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة . . عشرات من القصص هذا محورها ومئات التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتيرية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها . .

مثل هذه المجتمعات متخلفة . . غير متحضرة . . من وجهة نظر (الإنسان) وبمقياس خط التقدم (الإنسانى) .

إن خط التقدم الإنسانى يسير فى إتجاه (الضبط) للنزوات الحيوانية، وحصرها فى نطاق (الأسرة) على أساس (الواجب) لتؤدى بذلك (وظيفة الإنسانية ولا يمكن إعداد جيل يترقى فى خصائص الإنسان ويبتعد عن الحاضر فى ميراث الحضارة (الإنسانية) التى يميزها بروز الخصائص الإنسانية ولا يمكن إعداد جيل يترقى فى خصائص الإنسان ويبتعد عن خصائص الحيوان إلا فى محض أسرة محوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفى وقائمة على أساس الواجب الذى لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة . وفى المجتمع الذى تنشئه تلك التوجيهات والإيحاءات الخبيثة المسمومة والذى ينحسر فيه المفهوم الأخلاقى فيتخلى عن كل آداب الجنس لا يمكن أن يقوم ذلك المحضن الإنسانى .

من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هى اللائقة بالإنسان ويكون (الإسلام هو الحضارة) ويكون المجتمع الإسلامى هو المجتمع المتحضر . . بذلك المقياس الثابت الذى لا يتميع أو لا يتطور) .

وأخيرا فإنه حين يقوم (الإنسان) بالخلافة عن (الله) فى أرضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره . وأن يحكم شريعة الله وحدها فى حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها . وأن يعيش بالقيم والأخلاق التى قررها الله ويسقط القيم والأخلاق المدعاة، ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التى أودعها الله هذا الكون المادى ويستخدمها فى ترقية الحياة وفى استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التى أودعها الله إياها، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها ومنح

الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذى يلزم له فى الخلافة.. أى حين ينهض بالخلافة فى الأرض على عهد الله وشرطه ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ويصنع المادة الخامة ويقيم الصناعات المتنوعة ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التى حصل عليها الإنسان فى تاريخه كله.. حين يصبح وهو يصنع هذا كله (ربانياً) يقوم بالخلافة عن الله – على هذا النحو – عبادة لله. يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة.. فأما الإبداع المادى – فلا يسمى فى الإسلام حضارة.. فقد يكون وتكون معه الجاهلية.. وقد ذكر الله من هذا الإبداع المادى فى معرض وصف الجاهلية نماذج:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ* أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ* وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ – ١٣٥].

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ* وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ* الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ – ١٥٢].

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤].

ولكن الإسلام – كما أسلفنا – لا يحتقر المادة. ولا يحتقر الإبداع المادى، وإنما هو يجعل هذا اللون من التقدم – فى ظل منهج الله – نعمة من نعم الله على عباده ويبشرهم به جزاء على طاعته:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

المهم هو القاعدة التى يقوم عليها التقدم الصناعى والقيم التى تسود المجتمع.. والتى يتألف من مجموعها خصائص الحضارة (الإنسانية).

وبعد.. فإن قاعدة إنطلاق المجتمع الإسلامى، وطبيعة تكوينه العضوى تجعلان منه مجتمعا فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التى تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوى.. المجتمع الإسلامى وليد الحركة، والحركة فيه مستمرة وهى التى تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم.

والحركة التى يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضى ومن خارج المحيط البشرى.. إنها تتمثل فى عقيدة آتية من الله للبشر تنشىء لهم تصوراً خاصاً للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات. وتحدد لهم منهجاً للعمل يترجم هذا التصور.. الدفعة الأولى التى تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون.. إنها.. كما قلنا آتية من خارج النطاق الأرضى ومن خارج المحيط البشرى.. وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامى وتركيبه.

إنه ينطلق من عنصر خارج من محيط الإنسان وعن محيط الكون المادى.

وبهذا العنصر القدرى الغيبى الذى لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ودون أن يكون للإنسان يد فيه - فى ابتداء الأمر - تبدأ أولى خطوات الحركة فى قيام المجتمع الإسلامى. ويبدأ معها عمل (الإنسان) أيضا.. إنسان يؤمن بهذه العقيدة.. الآتية له من ذلك المصدر الغيبى الجارية بقدر الله وحده. وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامى (حكماً).. إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوى على نفسه.. إنه سينطلق بها.. هذه طبيعتها.. طبيعة الحركة الحية.. إن القوة العليا التى دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتماً.. أن الدفعة الحية التى وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضى فى طريقها قدماً.

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع. مجتمع إسلامى منفصل عن المجتمع الجاهلى الذى لا يدين لهذه العقيدة ولا تسود فيه قيمها الأساسية - القيم التى أسلفنا الإشارة إليها - وهنا يكون المجتمع الإسلامى قد وجد (فعلاً).

والثلاثة يصبحون عشرة والعشرة يصبحون مئة والمئة يصبحون ألفاً. والألف يصبحون اثنى عشر ألفاً. ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامى.

وفى الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذى انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته عن المجتمع الجاهلى - الذى أخذ منه أفراده - وتكون حركة من نقطة الإنطلاق إلى نقطة الوجود البارز

المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع وأعطته وزنه ومكانه فى هذا المجتمع حسب الميزان والاعتبار الإسلامى ويكون وزنه هذا معترفاً له به من المجتمع دون أن يزكى نفسه أو يعلن عنه، بل إن عقيدته وقيمه السائدة فى نفسه وفى مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليوارى نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه فى البيئة.

ولكن (الحركة) التى هى طابع العقيدة الإسلامية. وطابع هذا المجتمع الذى انبثق منها لا تدع أحدا يتوارى، إن كل فرد من أفراد هذا المجتمع لابد أن يتحرك. الحركة فى عقيدته والحركة فى دمه والحركة فى مجتمعه، وفى تكوين هذا المجتمع العضوى. إن الجاهلية من حوله. وبقية من رواسبها فى نفسه وفى نفوس من حوله والمعركة مستمرة والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

على إيقاعات الحركة، وفى أثناء الحركة يتحدد وضع كل فرد فى هذا المجتمع، ويتحدد وظيفته ويتم التكوين العضوى لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه.

هذه النشأة وهذا التكوين خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامى تميزانه، تميزان وجوده وتركيبه، وتميزان طابعه وشكله، وتميزان نظامه والاجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً، وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة لا تعالج بمفهومات اجتماعية أجنبية عنها، ولا تدرس، وفق منهج غريب عن طبيعتها ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر.

إن المجتمع الإسلامى – كما يبدو من تعريفنا المستقل للحضارة ليس بمجرد صورة تاريخية يبحث عنها فى ذكريات الماضى إنما هو طلبه الحاضر وأمل المستقبل. إنه هدف يمكن أن تستشرفه البشرية كلها اليوم وغداً، لترتفع به من وهدة الجاهلية التى تتردى فيها. سواء فى هذه الجاهلية المتقدمة صناعياً واقتصادياً والأمم المتخلفة أيضاً.

إن تلك القيم التى أشرنا إليها إجمالاً هى قيم إنسانية لم تبلغها الإنسانية إلا فى فترة (الحضارة الإسلامية) (ويجب أن ننبه إلى ما نعنيه بمصطلح (الحضارة الإسلامية).. إنها الحضارة التى توافرت فيها تلك القيم وليست هى كل تقدم صناعى أو اقتصادى أو علمى مع تخلف تلك القيم عنها).

وهذه القيم ليست (مثالية خيالية) إنما هى قيم واقعية عملية. يمكن تحققها بالجهد البشرى – فى ظل المفهومات الإسلامية الصحيحة – يمكن تحقيقها فى كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائد فيها وعن تقدمها الصناعى والاقتصادى والعلمى.. فهى لا تعارض – بل تشجع بالمنطق العقيدى ذاته – التقدم فى كافة حقول الخلافة ولكنها فى الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين فى البلاد التى لم تتقدم فى هذه

الحقول بعد. إن الحضارة يمكن أن تقوم فى كل مكان وفى كل بيئة.. تقوم بهذه القيم.. أما أشكالها المادية التى تتخذها فلا حد لها لأنها فى كل بيئة تستخدم القدرات الموجودة بها فعلاً وتنميها.

المجتمع الإسلامى إذن – من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه – ليس صورة تاريخية ثابتة، لكن وجوده وحضارته يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابتة.. وحين نقول (تاريخية) لا نعنى إلا أن هذه القيم قد عرفت فى تاريخ معين. وإلا فهى ليست من صنع التاريخ ولا علاقة لها بالزمن فى طبيعتها.. إنها حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر ربانى.. من وراء الواقع البشرى. ومن وراء الوجود المادى أيضاً.

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة فى تركيبها المادى والتشكيلى. ولكن الأصول والقيم التى تقوم عليها ثابتة لأنها هى مقومات هذه الحضارة: (العبودية لله وحده. والتجمع على آصرة العقيدة فيه. واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة. وسيادة القيم الإنسانية التى تنمى إنسانية الإنسان لا حيوانيته. وحرمة الأسرة. والخلافة فى الأرض على عهد الله وشرطه.. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها فى شئون هذه الخلافة).

إن (أشكال) الحضارة الإسلامية التى تقوم على هذه الأسس الثابتة، تتأثر بدرجة التقدم الصناعى والاقتصادى والعلمى. لأنها تستخدم الموجود منها فعلاً فى كل بيئة.. ومن ثم لابد أن تختلف أشكالها.. لابد أن تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات فى الإطار الإسلامى والتكيف بالقيم والمقومات الإسلامية.. وهذه المرونة – فى الأشكال الخارجية للحضارة – ليست مفروضة على العقيدة الإسلامية التى تنبثق منها تلك الحضارة إنما هى من طبيعتها.. ولكن المرونة ليست هى التميع.. والفرق بينهما بعيد جدا.

لقد كان الإسلام ينشىء الحضارة فى أواسط أفريقية بين العراة.. لأنه بمجرد وجود هناك تكتسى الأجسام العارية ويدخل الناس فى حضارة اللباس التى يتضمنها التوجيه الإسلامى المباشر. ويبدأ الناس فى الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط العمل الموجه لاستغلال كنوز الكون المادى. ويمرون كذلك من طور القبيلة – أو العشيرة – إلى طور الأمة. وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة إلى عبادة رب العالمين.. فما هى الحضارة إن لم تكن هى هذا؟.. إنها حضارة هذه البيئة التى تعتمد على إمكانياتها القائمة فعلاً.. فأما حين يدخل الإسلام فى بيئة أخرى فإنه ينشىء – بقيمه الثابتة – شكلاً آخر من أشكال الحضارة تستخدم فيه موجودات هذه البيئة وإمكانياتها الفعلية وينميها.

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة – بطريقة الإسلام ومنهجه – على درجة معينة من التقدم الصناعى والاقتصادى والعلمى. وإن كانت الحضارة حين تقوم تستخدم

هذا التقدم - عند وجوده - وتدفعه إلى الأمام دفعا وترفع أهدافه. كما أنها تنشئه إنشاء حين لا يكون، وتكفل نموه واطراده.. ولكنها تظل فى كل حال قائمة على أصولها المستقلة، ويبقى للمجتمع الإسلامى طابعه الخاص، وتركيبه العضوى الناشئان عن نقطة إنطلاقه الأولى التى يتميز بها من كل مجتمعات الجاهلية..

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨].

(ب) التصور الإسلامى والثقافة:

العبودية المطلقة لله وحده هى الشطر الأول لركن الإسلام الأول، فهى المدلول المطابق لشهادة أن لا إله إلا الله، والتلقى فى كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ هو الشطر الثانى لهذا الركن، فهو المدلول المطابق لشهادة أن محمداً رسول الله - كما جاء فى فصل: (لا إله إلا الله منهج حياة)...

والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل فى اتخاذ الله وحده إلهاً: عقيدة وعبادة وشريعة.. فلا يعتقد المسلم أن (الألوهية) تكون لأحد غير الله - سبحانه - ولا يعتقد أن (العبادة) تكون لغيره من خلقه ولا يعتقد أن (الحاكمية) تكون لأحد من عباده كما جاء فى ذلك الفصل أيضاً.

ولقد أوضحنا هناك مدلول العبودية والاعتقاد والشعائر والحاكمية وفى هذا الفصل نوضح مدلول الحاكمية وعلاقته بالثقافة.

إن مدلول (الحاكمية) فى التصور الإسلامى لا ينحصر فى تلقى الشرائع القانونية من الله وحده. والتحاكم إليها وحدها والحكم بها دون سواها.. إن مدلول (الشريعة) فى الإسلام لا ينحصر فى التشريعات القانونية ولا حتى فى أصول الحكم ونظامه وأوضاعه، إن هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول (الشريعة) والتصور الإسلامى.

إن (شريعة الله) تعنى كل ما شرعه لتنظيم الحياة البشرية.. وهذا يتمثل فى أصول الاعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة أيضا.

يتمثل فى الاعتقاد والتصور - بكل مقومات هذا التصور - تصور حقيقة الألوهية وحقيقة الكون غيبه وشهوده وحقيقة الحياه غبها وشهودها وحقيقة الإنسان والارتباطات بين هذه الحقائق كلها وتعامل الإنسان معها، ويتمثل فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأصول التى تقوم عليها لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده. ويتمثل فى التشريعات القانونية التى تنظم هذه الأوضاع وهو ما يطلق عليه اسم (الشريعة) غالبا بمعناها الضيق الذى لا يمثل حقيقة مدلولها فى التصور الإسلامى، ويتمثل فى قواعد الأخلاق والسلوك وفى القيم والموازين التى تسود المجتمع، ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث فى الحياة الاجتماعية. ثم.. يتمثل فى (المعرفة بكل جوانبها وفى أصول النشاط الفكرى والفنى جملة).

وفى هذا كله لابد من التلقى عن الله كالتلقى فى الأحكام الشرعية – بمدلولها الضيق المتداول – سواء بسواء.. والأمر فى (الحاكمية فى مدلولها المختص بالحكم والقانون – قد يكون الآن مفهوما بعد الذى سقناه بشأنه من تقريرات).

والأمر فى قواعد الأخلاق والسلوك وفى القيم والموازين التى تسود المجتمع قد يكون مفهوماً كذلك إلى حد ما. إذ أن القيم والموازين وقواعد الأخلاق والسلوك التى تسود فى مجتمع ما ترجع مباشرة إلى التصور الاعتقادى السائد فى هذا المجتمع وتتلقى من ذات المصدر الذى تتلقى منه حقائق العقيدة التى يتكيف بها ذلك التصور.

أما الأمر الذى قد يكون غريباً – حتى على قراء مثل هذه البحوث الإسلامية – فهو الرجوع فى شأن النشاط الفكرى والفنى إلى التصور الإسلامى وإلى مصدره الربانى.

وفى النشاط الفنى صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية باعتبار أن النشاط الفنى كله هو تعبير إنسانى عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته وعن صورة الوجود والحياة فى نفس إنسانية.. وهذه كلها يحكمها – بل ينشئها – فى النفس المسلمة تصورها الإسلامى بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة، وعلاقتها بباريء الكون والنفس والحياة وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الإنسان ومركزه فى الكون وغاية وجوده ووظيفته وقيم حياته.. وكلها متضمنة فى التصور الإسلامى الذى ليس هو مجرد تصور فكرى إنما هو تصور اعتقادى حى موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث فى الكيان الإنسانى[1].

فأما قضية النشاط الفكرى وضرورة رد هذا النشاط إلى التصور الإسلامى ومصدره الربانى تحقيقاً للعبودية الكاملة لله وحده فهذه هى القضية التى تقتضى منا بياناً كاملاً لأنها قد تكون بالقياس إلى قراء هذا الزمان – حتى للمسلمين منهم الذين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله وحده – غريبة أو غير مطروقة.

إن المسلم لا يملك أن يتلقى فى أمر يختص بحقائق العقيدة أو التصور العام للوجود أو يختص بالعبادة أو يختص بالخلق والسلوك والقيم والموازين أو يختص بالمبادىء والأصول فى النظام السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنسانى وبحركة التاريخ الإنسانى.. إلا من ذلك المصدر الربانى ولا يتلقى فى هذا كله إلا عن مسلم يثق فى دينه وتقواه ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة.

ولكن المسلم يملك أن يتلقى فى العلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة والإحياء والفلك والطب والصناعة والزراعة وطرق الإدارة – من الناحية الفنية والإدارية البحتة – وطرق

---

(١) كتاب «منهج الفن الإسلامى» لمحمد قطب.

العمل الفنية وطرق الحرب والقتال - من الجانب الفنى - إلى آخر ما يشبه هذا النشاط، يملك أن يتلقى فى هذا كله عن المسلم وغير المسلم.. وإن كان الأصل فى المجتمع المسلم حين يقوم أن يسعى لتوفير هذه الكفايات فى هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية يجب أن يتخصص فيها أفراد منه وإلا أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفايات ولم يوفر بها الجو الذى تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج، ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى فى هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم وأن يشغل فيها المسلم وغير المسلم.. لأنها من الأمور الداخلة فى قول رسول الله ﷺ: (أنتم أعلم بأمور دنياكم).. وهى لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان وغاية وجوده وحقيقة وظيفته ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله وبخالق الوجود كله ولا تتعلق بالمبادىء والشرائع والأنظمة والأوضاع التى تنظم حياته أفراداً وجماعات. ولا تتعلق بالأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التى تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع. ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته أو ارتداده إلى الجاهلية.

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنسانى كله أفرادا أو مجتمعات - وهو المتعلق بالنظرة إلى (نفس) الإنسان وإلى (حركة تاريخه) وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ونشأة الحياة ونشأة هذا الإنسان ذاته - من ناحية ما وراء الطبيعة - (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب.. إلخ) فالشأن فيه شأن الشرائع القانونية والمبادىء والأصول التى تنظم حياته ونشاطه مرتبط بالعقيدة ارتباطا مباشرا فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم يثق فى دينه وتقواه ويعلم عنه أنه يتلقى فى هذا كله عن الله.. والمهم أن يرتبط هذا فى حس المسلم بعقيدته وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده، أو مقتضى شهادته: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

إنه يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي. ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته في هذه الشئون كلها. إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية وليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الإنحرافات البشرية بردها إلى أصولها الصحيحة فى مقومات التصور الإسلامى وحقائق العقيدة الإسلامية.

إن اتجاهات (الفلسفة) بجملتها. وإتجاهات (تفسير التاريخ الإنسانى) بجملتها. وإتجاهات (علم النفس) بجملتها - عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها - ومباحث (الأخلاق) بجملتها. وإتجاهات دراسة (الأديان المقارنة) بجملتها. وإتجاهات (التفسيرات والمذاهب الاجتماعية) بجملتها - فيما عدا

المشاهدات والاحصاءات والمعلومات المباشرة. لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها – إن هذه الإتجاهات كلها هى الفكر الجاهلى – أي غير الإسلامى – قديماً وحديثاً متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية وقائمة على هذه التصورات. ومعظمها – إن لم يكن كلها – يتضمن فى أصوله المنهجية عداء ظاهراً أو خفياً للتصور الدينى والتصور الإسلامى. على وجه خاص.

والأمر فى هذه الألوان من النشاط الفكرى – والعلمى – ليس كالأمر فى علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والإحياء والطب – وما إليها – ما دامت هذه فى حدود التجربة والواقعية وتسجيل النتائج الواقعية دون أن تجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفى فى صورة من صوره وذلك كتجاوز الداروينية مثلاً لمجال إثبات المشاهدات وترتيبها فى علم الإحياء إلى مجال القول – بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك إلا الرغبة والهوى – إنه لا ضرورة لإفتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعى لتفسير نشأة الحياة وتطورها.

إن حكاية أن (الثقافة تراث إنسانى) لا وطن له ولا جنس ولا دين.. هى حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية – دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية (الميتافيزيقية) لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه. ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعا ولكنها وراء ذلك إحدى مصايد اليهود العالمية التى يهمها تمييع الحواجز كلها – بما فى ذلك، بل فى أول ذلك حواجز العقيدة والتصور – لكى ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله. وهو مسترخ مخدر يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطانى. وفى أوله نشاطهم الربوى الذى ينتهى إلى جعل حصيلة كد البشرية كلها تؤول إلى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود.

ولكن الإسلام يعتبر أن هناك – فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية – نوعين اثنين من الثقافة. الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامى. والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة.. قاعدة إقامة الفكر البشرى إلهاً لا يرجع إلى الله فى ميزاته.. والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكرى والواقعى الإنسانى، وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائما.

ويكفى أن نعلم أن الاتجاه التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الأوروبية الحاضرة لم ينشأ ابتداء فى أوروبا وإنما نشأ فى الجامعات الإسلامية فى الأندلس والمشرق مستمداً أصوله من التصور الإسلامى وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية

ومدخراته وأقواته.. ثم استقلت النهضة العلمية فى أوروبا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه. بينما ركد وترك نهائيا فى العالم الإسلامى بسبب بعد هذا العالم تدريجياً عن الإسلام بفعل عوامل بعضها كامن فى تركيب المجتمع وبعضها يتمثل فى الهجوم عليه من العالم الصليبى والصهيونى.. ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية وشردت به نهائياً بعيداً عن الله فى أثناء شرودها عن الكنيسة التى كانت تستطيل على الناس – بغياً وعدواناً – باسم الله(١).

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوروبى بجملته – شأنه شأن نتاج الفكر الجاهلى فى جميع الأزمان فى جميع البقاع – شيئا آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامى. ومعادية فى الوقت ذاته عداء أصيلاً للتصور الإسلامى.. ووجب على المسلم أن يرجع إلى مقومات تصوره وحدها وألا يأخذ إلا من المصدر الربانى إن استطاع بنفسه وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقى يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه.

إن حكاية فصل (العلم) عن (صاحب العلم) لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة فى نظرة الإنسان إلى الوجود والحياة والنشاط الإنسانى والأوضاع والقيم والأخلاق والعادات وسائر ما يتعلق بنفس الإنسان ونشاطه من هذه النواحى.

إن الإسلام يتسامح فى أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقى من المسلمين فى علم الكيمياء البحتة أو الطبيعة أو الفلك أو الطب أو الصناعية أو الزراعة أو الأعمال الإدارية والكتابية.. وأمثالها. وذلك فى الحالات التى لا يجد فيها مسلما تقيا يأخذ عنه فى هذا كله – (كما هو واقع ممن يسمون أنفسهم المسلمين اليوم، الناشىء من بعدهم عن دينهم ومنهجهم وعن التصور الإسلامى لمقتضيات الخلافة فى الأرض – بإذن الله – وما يلزم لهذه الخلافة) من هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة.. ولكنه لا يتسامح فى أن يتلقى أصول عقيدته. ولا مقومات تصوره. ولا تفسير قرآنه وسيرة نبيه. ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه. ولا مذهب مجتمعه. ولا نظام حكمه، ولا منهج سياسته، ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره. إلخ. من مصادر غير إسلامية. ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق فى دينه وتقواه فى شىء من هذا كله.

إن الذى يكتب هذا الكلام إنساناً عاش يقرأ أربعين سنة كاملة. كان عمله الأول فيها هو القراءة والإطلاع فى معظم حقول المعرفة الإنسانية.. ما هو من تخصصه

---

(١) يراجع فصل (الفصام النكد) فى كتاب «المستقبل لهذا الدين».

وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره. فإذا هو يجد كل ما قرأه ضيئلاً ضيئلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم - وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك - وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره. فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها. وعلى انحرافها. وعلى ضآلتها. وعلى قزامتها.. وعلى جعجعتها وانتفاشها وعلى غرورها وادعائها كذلك. وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي.

ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأياً لي أبديه.. إن الأمر أكبر من أن يفتى فيه بالرأي.. أنه أثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه إنما هو قول الله - سبحانه - وقول نبيه ﷺ.. نحكمه في هذا الشأن ونرجع فيه إلى الله والرسول كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه.

يقول الله - سبحانه - عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر - رضي الله عنه -: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء.. فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا. وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق وأنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني).

وحين يتحدد الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذي يقرره الله سبحانه يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون عن نية طيبة في أي مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية أو التاريخ الإسلامي.

---

(١) يراجع فصل (الفصام النكد) في كتاب « المستقبل لهذا الدين ».

أو التوجيه فى نظام المجتمع المسلم أو فى سياسته أو اقتصاده أو يقصدون إلى خير أو إلى هدى أو إلى نور.. والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس - بعد تقرير الله سبحانه - إنما هم الغافلون.

كذلك يتحدد من قول الله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾.. المصدر الوحيد الذى يجب على المسلم الرجوع إليه فى هذه الشئون. فليس وراء هدى الله إلا الضلال. وليس فى غيره هدى. كما تفيد صيغة القصر الواردة فى النص: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾.. ولا سبيل إلى الشك فى مدلول هذا النص ولا إلى تأويله كذلك.

كذلك يرد الأمر القاطع بالإعراض عمن يتولى عن ذكر الله بقصر اهتمامه على شئون الحياة الدنيا. وينص على أن مثل هذا لا يعلم إلا ظناً. والمسلم منهى عن اتباع الظن. وإنه لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فهو لا يعلم علما صحيحا.

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

والذى يغفل عن ذكر الله ولا يريد إلا الحياة الدنيا - وهو شأن جميع (العلماء) اليوم - لا يعلم إلا هذا الظاهر. وليس هذا هو (العلم) الذى يثق المسلم فى صاحبه فيتلقى عنه فى كل شأنه إنما يجوز أن يتلقى عنه فى حدود علمه المادى البحت ولا يتلقى منه تفسيراً ولا تأويلاً عاماً للحياة أو النفس، أو متعلقاتها التصورية.. كما أنه ليس هو العلم الذى تشير إليه الآيات القرآنية وتثنى عليه كقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها فى غير مواضعها فهذا السؤال التقريرى وارد فى آية هذا نصها الكامل: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

فهذا القانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.. هو الذى يعلم.. وهذا هو العلم الذى تشير إليه الآية. العلم الذى يهدى إلى الله وتقواه. لا العلم الذى يفسد الفطر فتلحد فى الله.

إن العلم ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع.. فالعلم يشتمل كل شىء. ويتعلق بالقوانين الطبيعية وتسخيرها فى خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع.. ولكن العلم الذى ينقطع عن قاعدته الإيمانية ليس هو

العلم الذى يعنيه القرآن، ويثنى على أهله. إن هناك ارتباطاً بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك وعلم الإحياء وعلم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم طبقات الأرض.. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية والقوانين الحيوية.. إنها كلها تؤدى إلى الله حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للإبتعاد عن الله.. كما اتجه المنهج الأوروبى فى النهضة العلمية – مع الأسف – بسبب تلك الملابسات النكدة التى قامت فى التاريخ الأوروبى خاصة بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة. ثم ترك آثاره العميقة فى مناهج الفكر الأوروبى كلها وفى طبيعة التفكير الأوروبى وترك تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الدينى جملة – لا لأصل التصور الكنسى وحده ولا للكنيسة وحدها – فى كل ما أنتجه الفكر الأوروبى فى كل حقل من حقول المعرفة. سواء أكانت فلسفة ميتافيزيقية أو كانت بحوثاً علمية بحتة لا علاقة لها – فى الظاهر – بالموضوع الدينى[1].

وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربى ونتاج هذا الفكر فى كل حقول المعرفة يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الدينى جملة فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداء للتصور الإسلامى خاصة لأنه يتعمد هذا العداء بصفة خاصة ويتحرى فى حالات كثيرة – فى خطة متعمدة – تمييع العقيدة والتصور والمفهومات الإسلامية ثم تحطيم الأسس التى يقوم عليها تميز المجتمع المسلم فى كل مقوماته.

ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربى وعلى نتاجه كذلك فى الدراسات الإسلامية.. ومن ثم تجب الحيطة كذلك فى أثناء دراسة العلوم البحتة – التى لابد لنا فى موقفنا الحاضر من تلقيها من مصادرها الغربية – من أية ظلال فلسفية تتعلق بها. لأن هذه الظلال معادية فى أساسها للتصور الدينى جملة والتصور الإسلامى بصفة خاصة. وأى قدر منها يكفى لتسميم الينبوع الإسلامى الصافى.. ا.هـ.

* * *

٤ – وإن الإيمان بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ينتج عنه الاستعلاء الحق. يقول تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩].. يقول صاحب كتاب «معالم فى الطريق» تحت عنوان: (استعلاء الإيمان) بعد أن يصدر بحثه بالآية السابقة ما يلى:

---

(١) يراجع فصل (الفصام النكد) فى كتاب «المستقبل لهذا الدين».

أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة فى القتال.. ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة بكل ملابساتها الكثيرة.

إنه يمثل الحالة الدائمة التى ينبغى أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء.

إنه يمثل حالة الاستعلاء التى يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شىء، وكل وضع، وكل قيمة، وكل أحد. الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان.

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان. وعلى قيم الأرض التى لم تنبثق من أصل الإيمان. وعلى قوانين الأرض التى لم يشرعها الإيمان وعلى أوضاع الأرض التى لم ينشئها الإيمان.

الاستعلاء.. مع ضعف القوة وقلة العدد وفقر المال كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء.

الاستعلاء الذى لا يتهاوى أمام قوة باغية، ولا عرف اجتماعى ولا تشريع باطل ولا وضع مقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان.

وليست حالة التماسك والثبات فى الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التى يشملها هذا التوجيه الإلهى العظيم.

والاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة ولا نخوة دافعة ولا حماسة فائرة. إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز فى طبيعة الوجود. الحق الباقى وراء منطق القوة وتصور البيئة واصطلاح المجتمع وتعارف الناس لأنه موصول بالله الحى الذى لا يموت.

إن للمجتمع منطقه السائد وعزمه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل على من ليس يحتمى منه بركن ركين وعلى من يواجهه بلا سند متين.. وللتصورات السائدة والأفكار الشائعة إيحاؤهما الذى يصعب التخلص منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر فى ظلها تلك التصورات والأفكار والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى.

والذى يقف فى وجه المجتمع ومنطقه السائد العام وقيمه واعتباراته وأفكاره وتصوراته وانحرافاته ونزواته.. يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس وأثبت من الأرض وأكرم من الحياة.

والله لا يترك المؤمن وحيداً يواجه الضغط وينوء به الثقل ويهده الوهن والحزن ومن ثم يجيء هذا التوجيه: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

يجيء هذا التوجيه ليواجه الوهن كما يواجه الحزن وهما الشعوران المباشران اللذان يساوران النفس فى هذا المقام.. يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات. الاستعلاء الذى ينظر من عل إلى القوى الطاغية والقيم السائدة والتصورات الشائعة والاعتبارات والأوضاع والتقاليد والعادات والجماهير المجتمعة على الضلال.

إن المؤمن هو الأعلى.. الأعلى سنداً ومصدراً... فما تكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وما تكون القيم السائدة فى الأرض؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس؟.. وهو من الله يتلقى وإلى الله يرجع وعلى منهجه يسير؟

وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود.. فالإيمان بالله الواحد فى هذه الصورة التى جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى. وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب. سواء ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديماً وحديثاً وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية الخرفة. وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة.. حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة إلى ذلك الركام وهذه التعسفات، تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجل قط، وما من شك أن الذين يعرفون هذه المعرفة هم الأعلون على كل من هناك[1].

وهو الأعلى تصورا للقيم والموازين التى بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص. فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله بصفاته كما جاء بها الإسلام ومن المعرفة بحقائق القيم فى الوجود الكبير لا فى ميدان الأرض الصغير. هذ ه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلة فى أيدى البشر الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم. ولا يثبتون على ميزان واحد فى الجيل الواحد، بل فى الأمة الواحدة، بل فى النفس الواحدة من حين إلى حين.

وهو الأعلى ضميراً وشعوراً، وخلقاً وسلوكاً.. فإن عقيدته فى الله ذى الأسماء الحسنى والصفات المثلى هى بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى والعمل الصالح والخلافة الراشدة. فضلاً على إيحاء العقيدة عن الجزاء فى الآخرة، الجزاء

---

(١) يراجع فصل (تيه وركام) فى كتاب «خصائص التصور الإسلامى ومقوماته».

الذى تهون أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعاً. ويطمئن إليه ضمير المؤمن لو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب.

وهو الأعلى شريعة ونظاماً. وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً ويقيسه إلى شريعته ونظامه فسيراه كله أشبه شىء بمحاولات الأطفال وخبط العميان إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل. وسينظر إلى البشرية الضالة من عل فى عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها ولا يجد فى نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال.

وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام المظاهر الجوفاء. والقوى المتنفجة والاعتبارات التى كانت تتعبد الناس فى الجاهلية.. والجاهلية ليست فترة من الزمان إنما هى حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن نهج الإسلام فى الماضى والحاضر والمستقبل على السواء.

هكذا وقف المغيرة بن شعبة أمام صور الجاهلية وأوضاعها وقيمها وتصوراتها فى معسكر رستم قائد الفرس المشهور (عن أبى عثمان النهدى قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم فى إجازته ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم فى زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة – والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة – لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه[1] فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم.. إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض. وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتمونى. اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول).

كذلك وقف ربعى بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية.

(أرسل سعد بن أبى وقاص قبل القادسية ربعى بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير[2]

---

(١) ترتروه: أكثروا الكلام معه، مغثوه: صرعوه.

(٢) النمارق: الوسائد والحشايا للاتكاء. والزرابى: البسط المخملة.

وأظهر اليواقيت واللآليء الثمينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة. وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة. ولم يزل راكبها حتى داس بها طرف البساط. ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد. وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه. فقالوا له. ضع سلاحك فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها. فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..

وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، وينظر إلى غالبه من عل ما دام مؤمناً. ويستيقن أنها فترة وتمضى وأن للإيمان كرة لا مفر منها، وهبها كانت القاضية فإنه لا يحنى لها رأساً. إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد. وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة، وغالبه يغادرها إلى النار. وشتان شتان. وهو يسمع نداء ربه الكريم:

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨].

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغاير لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، وبأن هؤلاء كلهم فى الموقف الدون. وينظر إليهم من عل فى كرامة وإعتزاز، وفى رحمة كذلك، وعطف ورغبة فى هدايتهم إلى الخير الذى معه، ورفعهم إلى الأفق الذى يعيش فيه.

ويضج الباطل ويرفع صوته، وينفش ريشه، وتحيط به الهالات المصطنعة التى تغشى على الأبصار والبصائر، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائن دميم وفجر كالح لئيم.. وينظر المؤمن من عل إلى الباطل المنتفش، وإلى الجموع المخدوعة، فلا يهن ولا يحزن، ولا ينقص إصراره على الحق الذى معه، وثباته على النهج الذى يتبعه، ولا تضعف رغبته كذلك فى هداية الضالين والمخدوعين.

ويغرق المجتمع فى شهواته الهابطة ويمضى مع نزواته الخليعة، ويلصق بالوحل والطين حاسبا أنه يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود. وتعز فى مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة، وكل طيبة حلال، ولا يبقى إلا المشرع الآسن. وإلا الوحل والطين.. وينظر المؤمن من عل إلى الغارقين فى الوحل اللاصقين بالطين. وهو مفرد وحيد فلا يهن ولا

يحزن ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف الطاهر، وينغمس في الحمأة وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين.

ويقف المؤمن قابضا على دينه كالقابض على الجمر فى المجتمع الشارد عن الدين، وعن الفضيلة وعن القيم العليا، وعن الاهتمامات النبيلة، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل.. ويقف الآخرون هازئين بوقفته، ساخرين من تصوراته، ضاحكين من قيمه.. فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل إلى الساخرين والهازئين والضاحكين وهو يقول كما قال واحد من الرهط الكرام الذين سبقوه فى موكب الإيمان العريق الوضيء فى الطريق اللاحب الطويل.. نوح عليه السلام: ﴿**إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون**﴾ [هود: ٣٨] وهو يرى نهاية الموكب الوضيء، ونهاية القافلة البائسة فى قوله تعالى:

﴿**إنَّ الَّذينَ أجْرَمُوا كَانُوا منَ الَّذينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ* وَإِذَا مَرُّوا بهِمْ يَتَغَامَزُونَ* وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ* وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ* وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ* فَالْيَوْمَ الَّذينَ آمَنُوا منَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ* عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ* هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٦]. وقديما قص علينا القرآن الكريم قوله الكافرين للمؤمنين:

﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذينَ كَفَرُوا للَّذينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**﴾ [مريم: ٧٣] أى الفريقين؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد؟ أم الفقراء الذين يلتفون حوله؟ أى الفريقين؟ النضر بن الحارث، وعمرو بن هشام، والوليد ابن المغيرة، وأبو سفيان بن حرب؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيراً أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر الذين لا سلطان لهم فى قريش ولا خطر، وهم يجتمعون فى بيت متواضع كدار الأرقم، ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة والمجد والجاه والسلطان.

إنه منطق الأرض. منطق المحجوبين عن الآفاق العليا فى كل زمان ومكان. وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء، عاطلة من عوامل الإغراء. لا قربى من حاكم، ولا إعتزاز بسلطان، ولا هتاف بلذة، ولا دغدغة لغريزة، وإنما هو الجد والمشقة والجهاد والاستشهاد.. ليقبل عليها من يقبل وهو على يقين من نفسه، أنه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات.

ولينصرف عنها من يبتغى المطامع والمنافع، ومن يشتهى الزينة والأبهة، ومن يطلب المال والمتاع، ومن يقيم لاعتبارات الناس وزنا حين تخف فى ميزان الله.

إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس. إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه.. إنه لا يستمدها من شهوات الخلق حتى لا يتأرجح مع شهوات الخلق، إنما يستمدها من ميزان الحق الذى لا يتأرجح ولا يميل.. إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفانى المحدود، إنما تنبثق فى ضميره من ينابيع الوجود.. فأنى يجد فى نفسه وهنا أو يجد فى قلبه حزناً وهو موصول برب الناس، وميزان الحق، وينابيع الوجود؟

إنه على الحق. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وليكن للضلال سلطانه، وليكن له هيله وهيلمانه، ولتكن معه جموعه وجماهيره.. إن هذا لا يغير من الحق شيئاً، إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال. ولن يختار مؤمن الضلال على الحق – وهو مؤمن ولن يعدا بالحق الضلال كائنة ما كانت الملابسات والأحوال..

﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ* رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ [آل عمران: ٨، ٩].

(جـ) نواقض الشهادتين:

١ – إن مما ينقض دعوى الشهادة، التوكل والاعتماد على غير الله. نأخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٣] إذ نفهم منها أنه لا يجوز لنا أن نتوكل على غيره ونأخذ هذا كذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** ﴾ [التوبة: ٢٥] ونأخذ هذا من معنى لا إله إلا الله، إذ وجدنا أن الاطمئنان لا يصح أن يكون لغير الله.

وليس معنى التوكل أن نترك العمل، بل الله عز وجل أمرنا أمرين: أمرنا أن نعمل، وأمرنا ألا نعتمد على العمل، أمرنا أن نعد كل أدوات القتال، وأن نهىء كل ما يلزم للحرب، وأمرنا أن نعتمد عليه وحده، أمرنا أن نكتسب، وأمرنا أن نؤمن أنه هو الرزاق، أمرنا أن نتداوى وأمرنا أن نؤمن أنه هو الشافى، أمرنا أن نأخذ بالأسباب وأن نعتمد عليه وحده، ونتوكل عليه جل جلاله، فمن أعد وهيأ وعمل ولم يتوكل عليه، ولم يعتمد عليه، فقد أخل بأحد الأمرين، ومن يتوكل ولم يستمد ويعمل فقد أخل بأحد الأمرين.

وها هنا مكمن الفرق بين الكافر والمؤمن، الكافر يبذل كل طاقته، والمؤمن يبذل كل طاقته، ولكن الأول لا يعتمد إلا على ما بذل والثانى لا يعتمد إلا على الله وحده.

فالاعتماد على الأسباب والغفلة عن الله فيها معصية، والاعتماد على الأسباب مع ادعاء أنه لا علاقة لله فيها شرك يناقض الشهادتين، ويكذب عشرات الآيات القرآنية التى تنسب كل شيء إلى إرادة الله وعلمه وقدرته: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ [الأنفال: ١٧]. ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٨] ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ [الشعراء: ٨٠] ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ﴾ [الحج: ٦٣].

فلابد من إيمان بالأسباب التي بثها الله فى هذا الكون، ولابد من إيمان بأن الله هو خالق كل شيء ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الزمر: ٦٢]، فمن أنكر الأسباب وعطلها كفر، ومن جعل لها تأثيراً أشرك.

٢ — وإن مما ينقض دعوى الشهادتين عدم اعتراف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها ظاهرة وباطنة حسية ومعنوية هى من فضل الله، وأنها لولا الله ما كانت. وقد رأينا فى التحليل اللفظى (لا إله إلا الله) كيف أن الله هو وحده المربى والمنعم.

ويتمم هذا المعنى أن نعترف بأن كل ما يصيبنا هو من الله كذلك، وأنه هو المانع كما هو المنعم، وأن من حقه أن يمنع وأن يبتلى، وليس لنا معه إلا الرضى، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وقال: ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [القصص: ٧٦ — ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن: ١١]. ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ**

يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزمر: ٤٩ - ٥٢]. ﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١]. ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥٣ - ٥٥]. ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠].

٣ - وإن مما ينقض دعوى الشهادتين العمل لغير الله بدون إذنه. نأخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ونأخذ هذا من قولنا: (لا معبود إلا الله) والعبادة ليست مقتصرة على الصلاة والزكاة والصوم والحج بل كل عمل تعمله تقصد به وجه الله فهو عبادة، وكل عمل تعمله تقصد به وجه غير الله بدون إذنه فهو شرك، ويدخل في هذا النوع من الشرك حالات كثيرة:

منها: إن يعمل الإنسان للقومية جاعلاً إياها هدف عمله الوحيد، يقاتل من أجلها، يتكلم من أجلها، يدعو للإيمان بها والعمل لها مع تركيز عصبيته كلها لها. أن مثل هذا الاتجاه اتجاه شركي لأن الله أمرنا أن نعمل له، وأن نجاهد له، وأن نقاتل له. ونحن إذ نفعل هذا قد نخدم قومنا تبعا وعرضا، وقد لا نخدمهم بل نكون ضدهم إذا كانوا كافرين. فالمسلم لا يكيف سلوكه على حسب ما تقتضيه مصالح قومه بل على حسب ما يأمره الله عز وجل.

ومنها: العمل للوطنية كهدف فهذا شرك، إن المسلم لا يتعلق بوطنه إلا بالقدر الذى يكون فيه هذا الوطن وأهله مستسلمين لله، وهو إذ يعمل ما فيه مصلحة هذا الوطن

وأهله إنما يعمل هذا لله، أما إذا أصبح الوطن هو قبلة العمل، ولم تعد نية وجه الله فيه هى الأصل، فذلك الشرك. لقد عاب الله عز وجل على أقوام تعلقهم بأوطانهم فقال:
﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦]. أن رفع شعار الوطنية، والوحدة الوطنية، والعمل من أجل المصلحة الوطنية لا يجوز أبداً أن يكون الأصل الذى توزن به الأشياء، فإذا ما أصبح كذلك، كان شركا، أما إذا كان الأصل الذى توزن به الأشياء هو الإيمان بالله، والعمل بما أمر، وكان مما أمر، القيام بما فيه مصلحة للوطن، وعملنا هذا تحقيقاً لأمره قاصدين وجهه، فهذه هى العبادة، وهذا الذى لا حرج فيه.

العمل للإنسانية والإنسان شرك، وصرف للإنسان عن الله الذى ينبغى أن يوجه إليه الإنسان وجهه.

وشعار (العلم للعلم) شرك.

وشعار (الواجب للواجب) شرك.

وشعار (الأدب للأدب) شرك.

وكل شعار يصرف وجه الإنسان عن أن يكون الله مقصوده ومعبوده شرك.

٤ – وإن مما ينقض دعوى الشهادتين إعطاء غير الله حق الأمر والنهى وحق التحليل والتحريم، وحق التشريع، وحق الحاكمية، قال تعالى: ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

ويدخل فى ذلك ما يسمى (بالديمقراطية) إذ الديمقراطية هى كلمة الأكثرية الممثلة بمجلس نيابى أو غيره يكون مفوضا بأن يشرع ما يريد دون قيد إلا قيد الدستور فى بعض البلاد، والدستور تضعه الأكثرية، بلا تقيد بأمر ما إلا بآرائهم وأفكارهم، أن مثل هذا إنما هو إعطاء حق التشريع والتحليل والتحريم للبشر وهو شرك.

أما الصيغة الصحيحة التى تجنبنا هذا الشرك فى المجتمع الإسلامى فهى أن يكون لنا مجلس شورى، ولا حرج أن يكون منتخباً، على أن يكون كل فرد من أفراد المجلس والمجلس ككل ملتزمين بأحكام الله، ما سمح الله لهم فيه أن يجتهدوا اجتهدوا، وما ورد فيه نص لم يكن لهم فيه إلا التسليم إن كان النص قطعيا، أو الترجيح إن كان ظنيا، أى أن الكتاب والسنة يمثلان الدستور فى البلاد الدستورية البرلمانية، بحيث لا يستطيع المجلس النيابى أن يسن من القوانين ما يخالف الدستور، فيكون عمله فى

الصورة، إما مفسراً للدستور أو سانا ما لا يخالفه، ويدخل فى ذلك أن تعطى صلاحية التشريع المستقل عن حكم الله لطبقة كطبقة الرأسماليين. أو الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا، ويدخل فى ذلك أن تعطى صلاحية التشريع للحزب أو لقياداته، ويدخل فى ذلك أن تعطى صلاحية التشريع لرجل سواء أكان رجل دين أو رجل سياسة.

ويدخل فى ذلك ألا يعترف الإنسان بأنه مكلف من الله بواسطة الرسول ﷺ فيسقط عن نفسه التكاليف، كيف وقد خاطب الله رسوله بقوله: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٨].

٥ - وإن مما ينقض دعوى الشهادتين:

أن تعطى الطاعة لغير الله بغير إذنه إذ من معانى لا إله إلا الله كما رأينا لا مطاع إلا الله. والطاعة التى أذن لنا الله فيها هى أن نطيع رسوله لأن طاعة رسوله طاعة له: ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠]. وطاعة أولى الأمر إذا كانت على كتاب الله وسنة رسوله، فإذا انحرفوا فلا طاعة لهم فى معصية الله. سواء أكانوا علماء دين، أو أمراء. والآية التى نصت على هذا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النساء: ٥٩]، فطاعة ولى الأمر مشروطة بكونه منا، وبكونه يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله حال اختلافه معنا. وفى الحديث: (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) (إنما الطاعة فى المعروف) فلا يطيع المسلم فى ذات الله أحداً: لا نفسه ولا شيطانه ولا كافراً ولا ضالاً ولا مبتدعاً ولا فاسقاً ولا مسرفاً ولا غافلاً ولا داعية إلى ضلالة ولا أحداً إذا دعانا إلى غير أمر الله: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾ [الجاثية: ٢٣] ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام: ١١٦] ﴿ **وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ** ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢] ﴿ **إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٩] ﴿ **إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ﴿ **أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [يس: ٦٠].

فمن أطعته من هؤلاء اتخذته إلهاً، وإذا اتخذته إلهاً كفرت: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ**

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٥، ٢٦]. أن مظهر ردة هؤلاء طاعتهم لمن كره ما نزل الله في بعض الأمر. ومما يدخل في هذا الأصل:

عدم طاعة رسول الله. إذ مظهر طاعة الله طاعة رسوله لأننا لا نعرفها إلا عن طريقه. طاعة رسوله تعني طاعة سنته، فمن لم يعترف بسنته فهو كافر، أما إذا اعترف بها وعصى فهو فاسق.

٦ – ومن نواقض الشهادتين الحكم بغير ما أنزل الله أو الإحتكام إلى غيره جل وعلا قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ [النساء: ٦٠، ٦١] وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقد وصف الله المنافقين بقوله:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٤٧ – ٥٢].

٧ – ومن نواقض الشهادتين: كراهية شيء من الإسلام أو كراهية الإسلام كله.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا

مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٨، ٩]. وقال عليه السلام: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). ويدخل فى ذلك أن يكره الإنسان حكماً من أحكام الإسلام سواء أكان فى العبادات أو الاقتصاد، أو المعاملات، أو السياسة، أو السلم أو الحرب أو الأخلاق، أو التنظيم الاجتماعى أو العلمى أو..

أن أى كراهية لمضمون آية، أو لمضمون حديث ثابت، أو لسنة بشمولها الذى يدخل فيه قول الرسول ﷺ أو فعله أو تقريره أو صفته، يخرج الإنسان عن الإسلام، وينقض دعوى الشهادتين عنده.

٨ – ومما ينقض دعوى الشهادتين: استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وجعل الدنيا هدف الإنسان الوحيد، قال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]. وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦]. وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨ – ٢٠]. وقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقد بين الله عز وجل ما هى الحياة الدنيا فقال:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا.. ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥]. وقال: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وبين من طلب الآخرة وتوعد سواه فقال: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٤].

٩ - ومما ينقض دعوى الشهادتين الاستهزاء لشيء من الكتاب والسنة، أو بأهلهما من أجلهما، أو بحكم من أحكام الله عز وجل، أو شعيرة من شعائره فعن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم فى بعض - أنه قال رجل فى غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء - يعنى رسول الله وأصحابه القراء - فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته - فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق، قال ابن عمر: كأنى أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿ **أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ [التوبة: ٦٥]، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه والآية التى نزلت فى هذا الشأن: ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ* وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ* لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٦].

فالاستهزاء بأى حكم من أحكام الإسلام، أو شعيرة من شعائره، أو نص من نصوصه ينقض الشهادتين كأن يسخر من آية فيها حكم كقوله: ترجعنا إلى شريعة السن بالسن والعين بالعين أو كقوله: تريدنا أن نمشى على ﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾ [الأنعام: ١٦٥] أو دعونا من هذا الكلام الفارغ بعد سماعه رأيا له علاقة بحكم من أحكام الإسلام، أو كالقول بعد مثل هذا: لا زلتم تتمسكون بهذه القشور كأن فى الإسلام قشراً ينبغى أن يقذف به، أو كالاستهزاء باللحية أو بأصحابها من أجلها، أو بالصلاة أو بأصحابها من أجلها، أو بالعلم بالإسلام أو بأهله من أجله أو الترفع على هؤلاء واحتقارهم، لأنهم ليس عندهم علم إلا به، إلى أشياء كثيرة كلها

تدخل فى هذا الأصل. ويقع فيها المنافقون وكلها تأخذ بصاحبها إلى الكفر. ولعل أمثال هذا ما أشار إليه الرسول بقوله: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم سبعين خريفا).

١٠ – ومما ينقض دعوى الشهادتين: تحليل ما حرم الله، أو استحلاله، وتحريم ما أحل الله. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ [النحل: ١٠٥]. وأعظم الكذب ما كان على الله فى تحريم ما أحل وتحليل ما حرم قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٣٧].

فتحريم ما أحل الله كفر، وتحليل ما حرم الله كفر، والمسارعة إلى التحريم. كالمسارعة إلى التحليل، وقد أصبح الناس فى هذا قسمين. فمنهم من غلبت عليه الشدة فيسارع إلى تحريم كل ما صادفه مما ليس حراماً، ومنهم من غلب عليه الاستهتار فيسارع إلى تحليل ما حرمه الله، وكلاهما ليس على الجادة. أن المسلم لا يتقدم أمام الله ورسوله برأى إلا أن يعلم حكم الله فيقوله، وذلك عنوان صدقه فى شهادته أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن الله يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [الحجرات: ١].

١١ – ومما ينقض دعوى الشهادتين عدم الإيمان بكل نصوص الكتاب، والسنة الثابتة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال عليه السلام: (ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكىء على أريكة فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه

حراما حرمناه وأن ما حرم رسول الله كما حرم الله) رواه الترمذى وهو حديث حسن صحيح وروى مالك قال: بلغنى أن النبى ﷺ قال: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ).

فعدم الإيمان بشيء من نص الكتاب ينقض الإيمان لأن الله قال: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩] وعدم الإيمان بالسنة الثابتة ينقض الإيمان لأنه تكذيب لرسول الله بشيء ثابت عنه وتكذيب رسول الله بأدنى شيء كفر.

وكما أن عدم التصديق بشيء من الكتاب والسنة الثابتة المتواترة أو بمجموع السنة ينقض دعوى الشهادتين، فكذلك الإيمان بنصوص زائدة على الكتاب على أنها من الكتاب أو زائدة عن السنة ومكتوبة على أنها من السنة قال عليه السلام: (من كذب على نبيه أو على عينيه أو على والديه لم يرح رائحة الجنة) وهو حديث حسن فى الكبير للطبرانى. ولمسلم والترمذى عنه عليه السلام: (من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين).

١٢ – ومما ينقض دعوى الشهادتين: تولى الكافرين والمنافقين وعدم محبة أهل التوحيد والمؤمنين. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة: ٥١ – ٥٣].. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [المائدة: ٥٧]. وقال: ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

وقال: ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ* سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

قيل في ذكر صاحبها أنه رجل كان هواه مع قومه الكافرين على موسى ومن معه ودعا عليهم وكان رجلاً صالحاً قبل.

١٣ - ومما ينقض دعوى الشهادتين: سوء الأدب مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] والتهديد بإحباط العمل مشعر بالردة قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧] فإذا كان رفع الصوت ومخاطبة رسول الله ﷺ كما يخاطب الآخرون يكون مظنة ردة فكيف بما هو أكبر من ذلك؟ كالاستهزاء بحال من أحواله، أو عمل من أعماله. كأمثال هؤلاء الذين يستحقون القتل: إذ يغمزون من كون الرسول ﷺ كان في عصمته تسع نساء.

إن الآية التي مرت معنا يدخل فيها أحوال كثيرة ولا شك أن من جملة أحوال من يدخل فيها أولئكم الذين يتحدثون عن رسول الله في كتاباتهم، أو مقالاتهم، أو خطبهم وكأنه رجل عادي ليست له صفة النبوة والرسالة، بدعوى المنطق العلمي أو الأسلوب العلمي، أو التحليل العلمي، أو أشياء من هذا الزخرف الباطل وصدق الله العظيم: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ* وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

١٤ - ومما ينقض دعوى الشهادتين: اشمئزاز القلب من توحيد الله وانبساطه لنوع من أنواع الشرك قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]. وأهم تطبيقات هذه الآية ما نراه عند طبقات من الناس اليوم: إذا أرجعت الأمور والحوادث إلى الله

نفرت قلوبهم وإذا أرجعتها إلى الطبيعة أو إلى الأسباب العادية أو نسبتها إلى الأولياء انبسطوا لذلك وسروا.

إذا قلت: لقد انتصرنا لأننا استعددنا وعبأنا قوتنا وكنا رجالاً.. سروا، وإذا قلت أن الله نصرنا انقبضوا، إذا قلت: هزمنا لعدم أخذنا بوسائل الحرب الحديثة سروا، وإذا قلت: هزمنا لأن الله لم يرد نصرنا لذنوبنا اشمأزوا. أن تطالبهم بأن يكون الله مقصودهم فى كل شىء يشمئزون وإذا عددت لهم المقصودات وزينتها لهم من نفس ودنيا وشهوة ومتاع استأنسوا.. وهكذا..

١٥ - ومن نواقض الشهادتين ادعاء أن للقرآن باطناً يخالف الظاهر. وأن هذا الباطن يستقل بعلمه بعض الناس بواسطة الإلهام، وما يقال فى القرآن يقال فى السنة. فالله عز وجل أنزل كتابه عربياً قال: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [يوسف: ٢]. وقال: ﴿ **لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل: ١٠٣]. وقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ** ﴾ [الرعد: ٣٧]. واللغة العربية معروفة المفردات معروفة القواعد. فلا يفهم القرآن ولا السنة التى تشرح القرآن إلا بمفردات هذه اللغة وقواعدها، وأساليب أصحابها. فمن خرج عن ذلك فإنما يخرج إلى غير أصل بل إلى هوى وضلال، وذلك تعطيل للشريعة بتعطيل نصوصها، وتفريق للمسلمين، لأنه لا يبقى بعد ذلك أصل يرجعون إليه، وأن اليهود والنصارى لم يصلوا إلى ضلال فى فهم كتبهم كهذا الضلال، ولا شك أن أصحاب الدعوة إليه أعظم زنادقة خرجوا بين المسلمين.

والقرآن بعد ذلك هو كما وصف رسول الله ﷺ:

(كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم. وهو الذى لا يزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ** ﴾ [الجن: ١، ٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم).

١٦ - ومن نواقض دعوى الشهادتين: عدم معرفة الله معرفة صحيحة، بإنكار شىء من صفاته، أو أسمائه أو أفعاله.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال: ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ٨]. وقال: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. وقال: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص]. وقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٧، ٨]. وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [الحج: ٦٣]. وقال على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٩ – ٨١]. وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وقال: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. وقال: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] ومن أذكارنا الصحيحة (لا حول ولا قوة إلا بالله). وقال على لسان موسى عليه السلام مخاطبا ربه: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وروى البخارى ومسلم عن زيد بن خالد – رضى الله عنه – قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: (قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب).

فما عرف الله من لم يعرف أن كل ما فى هذا الوجود أفعاله.

وما عرف الله من لم يعرف أسماءه وصفات كماله.

وما عرف الله من نسب إليه شيئا من نقص.

وما عرف الله من لم يعرف أن الكمال كله له.

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

قالت النصارى: إن الله يلد له ولد وكفروا، قالت اليهود: الله بخيل وكفروا وقالوا إن الله فقير وكفروا وقالوا: (إن الله تعب بعد ما خلق الخلق فاستراح) وكفروا.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥]. ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]. ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]. ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]. ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

إن عدم معرفة الله معرفة صحيحة، ووصفه بما لا يليق بذاته أو تشبيهه بخلقه، أو جعل خلقه جزءاً منه، كل ذلك كفر ونقض للشهادتين، لأنه إعطاء للألوهية لغير صاحبها الحقيقي، إذ من لم يعرف الله جهله، ومن جهله لم يوحده، وكذب وحي الله فيما وصف الله به ذاته.

١٧ - ومما ينقض دعوى الشهادتين: عدم معرفة الرسول معرفة صحيحة، أو سلبه صفة مما وصفه الله به أو وصفه بصفة منقصة له، أو محقرة، أو عدم اعتقاد كونه الأسوة العليا للإنسان.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وقال: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ

هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القلم: ١ – ٧]. وقال: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١]. وقال: ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فمن تابع غير محمد ﷺ على أمر النبوة كفر، ومن قال عنه إنه نبى للعرب فقد كفر. لأن الله قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ: ٢٨] ومن وصفه بالبدوى أو الأعرابى تحقيراً فقد كفر، والمسألة تدخل فيها أحوال كثيرة نسأل الله الحفظ.

١٨ – ومما ينقض دعوى الشهادتين تكفير أهلها وعدم تكفير من كفر بهما واستحلال قتال أهلهما: فالقواعد: من كفر مؤمنا فقد كفر، ومن لم يكفر الكافر فقد كفر، ومن شك فى كفر الكافر فقد كفر.

قال عليه السلا: (ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض).

وقال: (سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر) رواه الشيخان.

وقال: (لا يرمى رجل رجلا بالفسق أو الكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك).

وفى الحديث الذى رواه الطبرانى فى الكبير والصغير بإسناد فيه لين: (أخوف ما أخاف على أمتى ثلاث: رجل قرأ كتاب الله حتى إذا رست عليه بهجته وكان عليه رد، الإسلام اخترط سيفه وضرب به جاره ورماه بالشرك. قيل: يا رسول الله الرامى أحق به أم المرمى؟ قال: الرامى)..

وإنما كان تكفير المؤمن كفر لأن فيه طعناً فى نفس الإيمان.

كما كان الشك فى كفر الكافر أو تصحيح مذهبه أو عدم تكفيره كفراً لأنه تكذيب لله ولرسوله ﷺ.

١٩ – ومما ينقض دعوى الشهادتين:

أن يعمل عملاً مما جعله الله عز وجل عبادة لا تليق إلا به فيعطيه لغيره كأن يذبح لغير الله، أو يركع ويسجد لغير الله، أو يطوف بغير بيت الله بنية القربة لله. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكأن يدعو غير الله معتقدا فيه النفع والضر والله عز وجل يقول: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ

فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ [الرعد : ١٤] وكأن يحلف بغير الله تعظيماً قال عليه السلام : (من حلف بغير الله فقد أشرك) إذا كان يعتقد وجوب البر كأن ينذر نذراً لغير الله، قال تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : ٢٩] معتقداً القربة فى ذلك.

وكأن ينوى حج بيت الله بنية القربة لله . أو يشد الرحال بنية القربة لغير ما جعله الله قربة . والأصل الجامع لهذا كله : أن المسلم لا يعمل عملاً إلا لله ولا يعمل عملاً إلا إذا شرعه الله له . فإن عمل ما لم يأذن به الله فتلك معصية، أو عمل لغير الله فذلك شرك .

٢٠ – وهناك نوع من الشرك ينقض الشهادتين فى العمل الذى يكون فيه ولا ينقض الشهادتين من أساسهما، هذا النوع من الشرك هو الذى يسمى الشرك الأصغر، والذى دواؤه أن تقول : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه . ومظاهر هذا النوع من الشرك كثيرة :

كأن يحسن صلاته من أجل مدح الناس له، ورؤيتهم إياه، وكأن ينفق من أجل كلام الناس وإطرائهم له، وكأن يجاهد من أجل أن يذكر مكانه ويذاع اسمه .

وكأن يتعلم من أجل أن يتصدر الناس .

وكأن يخطب حتى يقول الناس خطيب .

وأمثال هذا كثير وكله شرك ينقض التوحيد فرع نقض، ولذلك يسمى الشرك الأصغر، وهو معصية يستحق بها صاحبها دخول النار وقد وردت فى ذلك الآثار الكثيرة :

روى مسلم عن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه) .

وروى أحمد عن رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟ قالوا : بلى يا رسول الله، قال : الشرك الخفى يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) . روى أبو داود عن أبى أمامة قال : (جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال : لا شيء له فأعادها ثلاث مرات يقول : لا شيء له، ثم قال : إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه) .

وروى النسائى عن عبادة عن رسول الله ﷺ قوله : (من غزا فى سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى) .

وروى مسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله قال : (إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل

جمع القرآن، وجل قتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك بما أنزلت على رسولى؟ فقال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارىء وقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك. ثم يؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقول الله: فى ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله: أردت أن يقال: فلان جرىء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة).

* * *

ونكتفى بهذا القدر من نواقض الشهادتين: إذ التفصيل والاستقصاء متعذر، ولكنها قواعد يدخل فيها غيرها. ونسأل الله أن يسلم لنا إيماننا فقد غلب الكفر فى عصرنا حتى إنك نادرا ما تجد إنساناً قد صفت له الشهادتان بلا نواقض.

* * *

الركن الثانى : الصلاة

(أ) نظرة عامة فى الصلاة :

١ – إن الصلوات هى المرتكزات الأساسية لصلة الإنسان بالله، وإحياء معانى الإيمان فى قلبه . فبالصلاة يتذكر الإنسان الله من مبدئها إلى منتهاها، إلى ما ورد من أذكارها، وبالصلاة يتذكر الإنسان اليوم الآخر . ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [الفاتحة] وبالصلاة يتذكر الإيمان بالرسول « السلام عليك أيها النبى » . « وأشهد أن محمداً رسول الله » « اللهم صل على محمد . . » وبالصلاة يتذكر الإنسان الكتاب والطريق الذى هدى إليه ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ وأثناء تلاوته لشىء منه، أو سماعه، وعلى هذا فالصلوات هى المظهر العملى للإيمان بالغيب وقد عبر عنها القرآن بلفظ الإيمان فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٤٣] فقد ورد فى أسباب نزولها كما روى الشيخان : (إنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ﴾ لذلك كان فعل الصلاة دليلاً على الإيمان وتركها دليلاً على الكفر، وقال ﷺ : (بين الرجل والشرك ترك الصلاة) . (بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة) (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) (كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة) (من ترك صلاة العصر حبط عمله) .

٢ – وعلى قدر ما تكون العقيدة واضحة فى نفس الإنسان، وعلى قدر ما يكون الإيمان يقظا فى قلبه تكون استقامته على أمر الله، ولما كانت الصلاة هى التى بها تحيا عقيدة الحق فى قلب الإنسان كانت هى السبب المباشر الذى يجعل الإنسان مستقيماً ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

ولذلك كانت الصلاة مقياسا وميزانا ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ** ﴾ [النساء : ١٤٢] ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ [الماعون : ٤ . ٥] وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : (لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه) . ما قبلها من الإسلام لا يقوم إلا بها، وما بعدها من الإسلام لا يقوم إلا بها، فهى الركن الثانى فى الإسلام الذى يحقق الركن الأول شعورياً وعقلياً، وكل الإسلام بعد ذلك يأتى أثر عنها . لذلك رأينا الآية الأولى فى هذه الفقرة كيف جعلتها

تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أجل هذا كان خير ما يفعله المسلم وأعظم ما يقربه إلى الله هى. وقال ﷺ: (استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن). (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).

قال معدان بن أبى طلحة: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ ورضى عنه فقلت: أخبرنى بعمل أعمله يدخلنى الله به الجنة - أو قال قلت: بأحب الأعمال إلى الله تعالى - فسكت ثم سألته فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: (عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله تعالى سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة). قال معدان: ثم أتيت أبا الدرداء فسألته فقال مثل ما قال لى ثوبان.

٣ - والحقيقة أن الصلاة رمز كامل على معرفة الله، والقيام بحقوق عبوديته. فالله خلق كل شيء للإنسان فكون العبد يقول: الحمد لله. إنما هو رمز على المعرفة والاعتراف، والله عز وجل خالق كل شيء فهو أكبر من كل شيء، فعندما يقول العبد المسلم: (الله أكبر) فذلك رمز على المعرفة والاعتراف، والله عز وجل الخالق، لا يشبه المخلوقين فقول المسلم: (سبحان الله) رمز على هذه المعرفة واعتراف، والركوع والسجود. وقولنا: (سبحان ربى الأعلى) أو (سبحان ربى العظيم) اعتراف لله وحده بالربوبية واعتراف بأن محل الإنسان فى الوجود العبودية لله.. لذلك قال رسول الله ﷺ: (الصلاة مثنى مثنى تشهد فى كل ركعتين وتخشع وتمسكن وتقنع يديك يقول: ترفعهما إلى ربك تعالى مستقبلاً ببطونهما وجهك وتقول: يارب يارب يارب ومن لم يفعل فهى خداج).

٤ - وإذا كانت الصلاة رمز العبودية لله، وهى التى تعطى المؤمن يقظة الإيمان الدائمة، فإنها كذلك لا تقوم ولا تكون سهلة على الإنسان إلا إذا وجد الإيمان العميق بالله واليوم الآخر. فمن لم يكن إيمانه عميقا بالله واليوم الآخر، كانت الصلاة عليه صعبة قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، إن الإنسان الذى استقر فى قلبه الإيمان باليوم الآخر، واستشعر لقاء الله ورجوعه إليه. هو الذى تصبح الصلاة له قرة عين كما كانت لرسول الله ﷺ: (حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة).

٥ - ولهذا كله كانت الذنوب والأخطاء مع الصلاة مغفورة مقهورة، إذ هى تجديد صلة وتجديد عهد وغسل لماض وفتح صفحة جديدة مع الله عز وجل (أن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر). عن سعد بن أبى وقاص قال: كان رجلان أخوان فهلك أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة فذكرت فضيلة الأول منهما

عند رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : ألم يكن الآخر مسلماً؟ قالوا: بلى وكان لا بأس به، فقال ﷺ : وما يدريكم ما بلغت به صلاته بعده إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه فإنكم لا تدرون ما بلغت به صلاته.

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ فى المسجد ونحن معه إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، إنى أصبت حدا فاقمه على، فسكت عنه ثم أعاد فسكت وأقيمت الصلاة فلما انصرف رسول الله ﷺ تبعه الرجل واتبعته أنظر ماذا يرد عليه فقال له: أرأيت حين خرجت من بيتك أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟ قال: بلى يا رسول الله قال: ثم شهدت الصلاة معنا؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: فإن الله تعالى قد غفر لك حدك - أو قال: ذنبك -.

٦ - وإقامة الصلاة تكون بترك كل ما أمر بتركه فيها وبفعل كل ما أمر بفعله فيها: فالصلاة شروط وأركان وواجبات وسنن وآداب، ولها مكروهات، ويفسدها أشياء، فمن ترك مفسداتها ومكروهاتها، وأتى بشروطها وأركانها، وواجباتها وسننها وآدابها، فقد أقامها وقد جعلها الله عز وجل فريضة، ونوافل لجبر نقصان الفريضة، أو لرفع الدرجات إن لم يكن فى الفريضة نقصان، ومن ليس فى صلاته نقصان إلا كمل الرجال وقليل ما هم؟

عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل لينصرف من صلاته وما كتب له منها إلا عشرها. تسعها. ثمنها. سبعها. سدسها. خمسها. ربعها. ثلثها. نصفها). أخرجه أبو داود. فرجل أقام الصلاة إذن هو هذا الذى أتى بها كاملة الأركان والسنن، والواجبات والآداب، والفروض والنوافل.

٧ - ومراكز الإسلام المساجد ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ [الجن: ١٨] فعمارتها رمز ارتباط المسلم بإسلامه والمسلمين ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ [التوبة: ١٨].

قال ابن مسعود: لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض، إن كان المريض ليمشى بين الرجلين حتى يأتى الصلاة وقال: (إن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى وأن من سنن الهدى (الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه) أخرجه مسلم وأبو داوود وزاد (وما منكم من أحد إلا وله مسجد فى بيته ولو صليتم فى بيوتكم وتركتم مساجدكم تركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لكفرتم) أى هذا الترك

يؤدى بكم إلى الكفر كما هو واقعنا. وقال عليه الصلاة والسلام: (أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً يصلى بالناس ثم أنطلق معى برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم). وقال: (من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله) رواه مسلم.

وقال: (صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وسوقه خمساً وعشرين ضعفا وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا تخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه: اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة).

٨ – هذه معان فى الصلاة وإقامتها، من حققها وتحقق بها كان ذلك الإنسان الذى سلم عن كل ضعف، وارتفع إلى خير خلق وكان كما وصف الله عباده ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا* إِلاَّ الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ* وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ* لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ* وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ* وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ* إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ* وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ* أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ** ﴾ [المعارج: ١٩ – ٣٥].

من التجارب الطريفة فى هذا الموضوع، أن مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك أجرت اختباراً نفسياً على (١٥٣٢١) نفسا من الرجال والنساء المتعطلين، وفى ضوء هذه الاختبارات، أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة له وقد عين الدكتور – هنرى لنك – أحد علماء النفس التجريبى مستشاراً خاصاً فى هذه العملية، ونيط به وضع الخطط، ومراقبة الدراسات الاحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ويقول فى ذلك: (وفى هذا الوقت بالذات بدأ ادراكى لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان إذ وجدت أن كل من يعتنق ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يزاول أية عبادة).

هذا والعبادة باطلة والدين باطل فكيف إذا كانت العبادة الحقة والدين الحق. إن المسلم الحق إنسان لا مثيل له فى قوة الشخصية فى العالم كله، بفضل صلته بالله، واعتزازه بهذه الصلة.

٩ - ولنعود لنقول: الصلاة هى مظهر ما قبلها من الإسلام، وكل ما بعدها من الإسلام أثر عنها فالصلاة أهم أعمال الإسلام بعد الشهادتين وهى رمزهما:

إنها تذكرنا أنه لا معبود إلا الله	: **إياك نعبد**
ولا مستعان به إلا الله	: **وإياك نستعين**
ولا هادى إلى صراط الحق غيره	: **إهدنا الصراط المستقيم**
وأنه المستحق للتعظيم وحده	: سبحان ربى العظيم
وأن له السيادة والعلو	: سبحان ربى الأعلى
وأنه المنعم المتفضل	: ربنا ولك الحمد

وكما تظهر هذه القضايا فى أقوال الصلاة، فكذلك تظهر فى أعمالها من طهارة لها إلى ستر عورة، إلى استقبال قبلة، لركوع لسجود، لقيام لقعود وكل ذلك مستمد من رسول الله ﷺ. فيها تتحقق الشهادتان، والإسلام كله بعد ذلك يقول: ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

١٠ - قال عليه السلام: (أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله، صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة؟ ثم تكون سائر أعماله على هذا) رواه الترمذى.

وقال عليه السلام: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) متفق عليه.

١١ - وأخيرا فإن الحد الأدنى من إقامة الصلاة إقامة فرائضها، ومن أراد الاستزادة، من فضل الله وعبادته فقد فتح له باب الاستزادة (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام: فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات فى اليوم والليلة، قال: هل على غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوع. فقال رسول الله ﷺ: وصيام شهر رمضان. قال: هل على غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع، وذكر له الزكاة فقال: هل علىَّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال رسول الله ﷺ أفلح إن صدق).

وما من حالة يصبح الإنسان فيها فى حرج إلا خفضت عليه صلاته فالمسافر جعلت له الصلاة الرباعية ثنتين، والمريض يصلى كما يستطيع قياماً أو قعوداً أو غير ذلك، ومن لم يجد الماء يتيمم ومن لم يستطع استعماله لمرض يتيمم فلا يعقل أن يكون الإنسان مع هذا كله فى حالة لا يستطيع معها القيام بأمر الله، ولا عذر لإنسان يترك أمره، وإنها الجناية على ذات الإنسان أن يترك صلاته التى تطهر ظاهره كله بغسل أو وضوء أو سواك أو . . وتطهر باطنه من كل رذيلة لا تليق بالإنسان ثم أنها الخيانة على الذات بعد ذلك إذ يدخل النار .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٢ – ٤٧] .

(ب) صورة من الحديث للصلاة :

قال تعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه : ١٤] وقال : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾ [النساء : ١٠٣] أى فريضة موقتة بأوقات معينة وقال عليه السلام لمعاذ : (فأعلمهم أن الله تعالى افترض خمس صلوات فى كل يوم وليلة) وقال عليه السلام : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر) فهن خمس صلوات إذن وأوقاتهن ما يلى :

قال عليه السلام : (إن للصلاة أولاً وآخراً وإن أول وقت صلاة الظهر حين تزول الشمس وآخر وقتها حين يدخل وقت العصر وإن أول وقت العصر حين يدخل وقتها (أى حين يكون ظل كل شىء مثله) وإن آخر وقتها حين تصفر الشمس وإن أول وقت المغرب حين تغرب الشمس وإن آخر وقتها حين يغيب الشفق وإن أول وقت العشاء حين يغيب الشفق وإن آخر وقتها حين ينتصف الليل وإن أول وقت الفجر حين يطلع الفجر وإن آخر وقتها حين تطلع الشمس) رواه الترمذى .

وعن مالك قال : كتب عمر إلى عماله أن أهم أموركم عندى الصلاة، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ثم كتب : أن صلوا الظهر إذا كان الفىء ذراعاً إلى أن يكون ظل أحدكم مثله . والعصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية قدر ما يسير الراكب فرسخين أو ثلاثة قبل مغيب الشمس . والمغرب إذا غربت الشمس . والعشاء إذا غاب الشفق إلى ثلث الليل فمن نام فلا نامت عينه فمن نام فلا نامت عينه فمن نام فلا نامت عينه . والصبح والنجوم بادية مشتبكة) .

وعن عقبة بن عامر قال : ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلى فيهن أو نقبر فيهن موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع وحين يقوم قائم

الظهيرة حتى تميل الشمس وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب) . وشعار المسلمين إذا دخل وقت صلاتهم أن يؤذنوا، وسنة الأذان :

عن أبى محذورة قال : قلت يا رسول الله علمنى سنة الأذان قال : فمسح مقدم رأسى قال : (تقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ترفع بها صوتك ثم تقول : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، تخفض بها صوتك ثم ترفع صوتك بالشهادة : أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الصلاة حى على الفلاح حى على الفلاح، فإن كان صلاة الصبح قلت : الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله) .

فإذا اجتمع المسلمون للصلاة أقاموا الصلاة ثم وقفوا لأدائها وسنة الإقامة :

قال أبو محذورة : (وعلمنى – أى رسول الله – الإقامة مرتين مرتين : الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الصلاة حى على الفلاح حى على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . وإذا أقمت الصلاة فقلها مرتين : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، أسمعت ؟ قلت : نعم) .

فإذا قامت الصلاة أم المسلمين أحدهم يقول عليه السلام : (إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم وأحقهم بالإمامة أقرؤهم) وقال : (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فاعلمهم بالسنة فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنا ولا يؤم الرجل فى بيته ولا فى سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه) .

ويصلى إمامهم بهم الصبح ركعتين والظهر أربع ركعات والعصر كذلك والمغرب ثلاث ركعات والعشاء أربعاً ومن لم يتح له أن يصلى مع إمام لعذر أو لغير عذر صلاها منفردا على نقصان فى الأجر وخلاف بين الفقهاء فى الوزر إن لم يكن صاحب عذر .

وأما كيفية الصلاة فقد روى أبو حميد الساعدى كيفية صلاته عليه السلام قال : كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ثم يكبر حتى يقر كل عظم فى موضعه معتدلا ثم يقرأ ثم يكبر ويرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه ثم يعتدل ولا يصوب رأسه ولا يقنع ثم يرفع رأسه فيقول : سمع الله لمن حمده . ثم يرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه معتدلا ثم يقول : الله أكبر ثم يهوى إلى الأرض فيجافى يديه عن جنبيه، ثم يرفع رأسه ويثنى رجله اليسرى فيقعد عليها ويفتح أصابع رجليه إذا سجد ثم يسجد ثم يقول : الله أكبر ويرفع رأسه فيثنى

رجله اليسرى فيقعد عليها حتى يرجع كل عظم إلى موضعه ثم يصنع فى الأخرى مثل ذلك، ثم إذا قام من الركعتين كبر ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه كما كبر عند افتتاح الصلاة ثم يصنع ذلك فى بقية صلاته حتى إذا كانت السجدة التى فيها التسليم أخرج رجله اليسرى وقعد متوركاً على شقه الأيسر).

وأما تسليمه عليه السلام للخروج من الصلاة فقد وصف: (كان رسول الله يسلم عن يمينه وعن يساره حتى أرى بياض خده). وقال ابن مسعود: كان يسلم عن يمينه وعن يساره: السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله.

أما كيفية وضعه يديه على فخذيه أثناء القعود فقد وصفه أحد الصحابة قال: (كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بإصبعه التى تلى الإبهام ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى) (ويده اليسرى على ركبته اليسرى باسطها عليها).

وأما ما يقوله فى القعود فقد روى ابن مسعود: علمنى رسول الله التشهد كفى بين كفيه كما يعلمنى السورة من القرآن: (التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله).

وأما السجود فيكون على سبعة أعضاء عن ابن عباس قال: أمرنا النبى ﷺ أن نسجد على سبعة أعضاء ولا نكف شعراً ولا ثوباً: الجبهة واليدين والركبتين والرجلين) وأما الذكر فيه وفى الركوع فقد ورد عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: (إذا ركع أحدكم فليقل سبحان ربى العظيم ثلاثاً وذلك أدناه، وإذا سجد فليقل سبحان ربى الأعلى ثلاثا وذلك أدناه).

وأما القراءة فى القيام فقد ورد: (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج – ثلاثاً – غير تمام) قال أبو هريرة: سمعت رسول الله يقول: قال الله تعالى: (قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قال الله عز وجل: حمدنى عبدى. وإذا قال: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ قال الله: أثنى على عبدى، وإذا قال: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ قال: مجدنى عبدى، وإذا قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، وإذا قال: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل).

وكان يقرأ فى الركعتين الأولين من الصلاة المفروضة شيئا من القرآن غير الفاتحة أما ما زاد على الركعتين فكان يقتصر فيه على الفاتحة قال أبو قتادة : (كان يقرأ فى الظهر فى الأولين بأم الكتاب وسورتين وفى الركعتين الأخيرتين بأم الكتاب ويسمعنا الآية أحيانا ويطول فى الركعة الأولى ما لا يطيل فى الثانية وكذا فى العصر والصبح) .

وقبل الفاتحة فى الركعة الأولى يستعيذ بالله فقد جاء عن النبى ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وقبل الإستعاذة فى الركعة الأولى يستفتح بشىء من الذكر فقد ورد أن أبا هريرة قال : قلت : يا رسول الله أرأيت إسكاتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال أقول : (اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب . اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد) .

وسمع عمر يستفتح : (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك) .

هذه الصلوات الخمس لا تصح إلا بأوقاتها فمن صلى صلاة قبل دخول وقتها لم تجز صلاته إلا فيما أبيح فيه الجمع، كما أنها لا تصح إلا بطهارة كاملة من النجاسات والأحداث فمن أصابت ثوبه أو بدنه نجاسة لزمه تطهيرها، ومن كان جنباً لزمه أن يغتسل ومن لم يكن متوضئاً لزمه الوضوء قال عليه السلام: (لا يقبل الله صلاة بغير طهور) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة : ٦] وقد وصفت ميمونة زوجة رسول الله غسله من الجنابة فقالت : (فغسل يديه ثم صب بيمينه على شماله فغسل فرجه وما أصابه ثم مسح بيده على الحائط أو الأرض ثم توضأ وضوءه للصلاة غير رجليه ثم أفاض عليه الماء ثم نحى رجليه فغسلهما . هذا غسله من الجنابة) وأما وضوءه عليه السلام فقد روى أن عثمان دعا بماء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه فى الإناء فمضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه إلى المرفقين ثلاث مرات ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ثم قال : رأيت رسول الله توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال : من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه) .

كما لا تصح الصلاة إلا إذا كانت عورة الإنسان مستورة وعورة الرجل ما بين

سرته إلى ركبتيه والمرأة كلها عورة إلا وجهها وكفيها فى الصلاة وفيما عدا الصلاة كلها عورة على القول الذى قامت عليه الأدلة.

كما لا تصح صلاة الإنسان إلا مستقبل البيت الحرام حقيقة، أو اجتهاداً فى محله، كما لا تصح الصلاة بلا نية الصلاة، فهذه مجملات ما تقوم به الصلاة المفروضة ذكرناها تبركاً بذكر النصوص، وإلا ففى كتب الفقه كل التفصيلات الدقيقة لكل ما له علاقة بهذه الشئون، مع جمع لكل ما ورد عن الرسول عليه السلام فى هذه المواضيع، إذ أثر عنه صيغ مختلفة لبعض الفروع مما أدى إلى اختلاف فى التطبيق المذهبى لا يضر ما دام معه دليله.

* * *

وأما صلاة التطوع فإنها على أربعة أقسام:

القسم الأول: السنن الرواتب ويدخل فيها راتبة الظهر وهى ثنتان أو أربع قبلها وثنتان بعدها أو أربع، وراتبة المغرب وهى ركعتان بعدها، وراتبة العشاء ركعتان بعدها أو أربع، وراتبة الفجر وهى ركعتان قبلها، وراتبة العصر أربع قبلها لمن أحب، وبعد صلاة العشاء تأتى صلاة الوتر المهمة والتى يعتد وقتها حتى الفجر وأقلها ركعة على بعض المذاهب، أو ثلاث على رأى آخرين وأكثره إحدى عشرة ركعة، وراتبة الضحى وأقلها ركعتان وأكثرها ثمان.

القسم الثانى: وهو ما سن له الجماعة من التطوعات وهى صلاة التراويح فى رمضان وصلاة العيدين على القول بأنها سنة.

القسم الثالث: التطوع المطلق وهو مشروع بالليل والنهار إلا فى وقت لم تشرع فيه الصلاة مطلقا أو صلاة النافلة فقط.

القسم الرابع: صلوات لها أسباب منها تحية المسجد، ومنها صلاة الاستخارة، ومن ذلك سجود التلاوة، وسجود الشكر، وقد ورد فى ذلك كله آثار نثبت بعضها.

قال عليه السلام: (ركعتا الفجر أحب إلى من الدنيا وما فيها) رواه مسلم. وقال عن صلاة الفجر - أى التطوع -: (صلوها ولو طردتكم الخيل) رواه أبو داوود.

وقال عليه السلام : (من حافظ على أربع قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار) رواه الترمذى وقال عنه: حديث حسن صحيح.

وقال عليه السلام: (رحم الله امرءاً صلى قبل العصر أربعاً) رواه أبو داوود.

وقالت عائشة: (ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط إلا صلى أربع ركعات أو ست) رواه أبو داوود.

وقال عليه السلام: (إن الله زادكم صلاة فصلوها ما بين صلاة العشاء إلى صلاة الصبح: الوتر) رواه أحمد.

وقال عليه السلام: (الوتر حق فمن أحب أن يوتر بخمس فليفعل ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل ومن أحب أن يوتر بواحدة فليفعل) رواه أبو داوود.

وقال أبو هريرة: (أوصانى خليلى بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتى الضحى وأن أوتر قبل أن أنام) متفق عليه.

وروت أم هانىء: (أن النبى ﷺ دخل بيتنا يوم فتح مكة فصلى ثمان ركعات فلم أر قط صلاة أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود) متفق عليه.

وروى مسلم عنه عليه السلام: (صلاة الأوابين حين ترمض الفصال) أى حين تؤثر الشمس على خفاف صغار الإبل.

وقال عليه السلام: (من حافظ على شفعة الضحى غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر).

وقال عليه السلام: (من صام رمضان وقامه إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).

وأما التطوع فقد ذكر عنه صاحب كتاب «الكافى» من فقهاء الحنابلة:

(التطوع المطلق وهو مشروع فى الليل والنهار وتطوع الليل أفضل لقول رسول الله ﷺ: (أفضل الصلاة بعد المفروضة صلاة الليل) وهو حديث حسن، والنصف الأخير أفضل.. قال عمرو بن عبسة: قلت يا رسول الله أى الليل أسمع؟ قال: (جوف الليل الآخير) رواه أبو داوود..

وقال النبى ﷺ: (أحب الصلاة إلى الله صلاة داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه) متفق عليه.

ويستحب للمتهجد أن يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين لقول رسول الله ﷺ: (إذا قام أحدكم من الليل فليفتح صلاته بركعتين خفيفتين) رواه مسلم. ويستحب أن يكون له ركعات معلومة يقرأ فيها حزبه من القرآن لأن رسول الله ﷺ قال: (أحب العمل إلى الله الذى يدوم عليه صاحبه وإن قل) متفق عليه.. وقالت عائشة: (كان رسول الله ﷺ يصلى ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء الآخرة إلى الفجر إحدى عشرة ركعة) رواه مسلم.

وهو مخير إن شاء خافت وإن شاء جهر قالت عائشة: (كل ذلك كان يفعل النبى ﷺ ربما أسر وربما جهر) حديث صحيح إلا أنه إن كان يسمع من ينفعه أن يكون أنشط له وأطيب لقلبه فالجهر أفضل، وإن كان يؤذى أحداً أو يخلط عليه القراءة فالسر أولى، فإن أبا سعيد قال: اعتكف رسول الله ﷺ فى المسجد فسمعهم يجهرون

بالقراءة فكشف الستر وقال : ألا إن كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضاً ولا يرفع بعضكم على بعض فى القراءة) رواه أبو داوود .

وقال عليه السلام: (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس) .. وروى جابر قال : (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : (إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسالك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى ومعادى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فأقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال : فى عاجل أمرى وآجله — فاصرفه عنى واصرفنى عنه وأقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به) أخرجه البخارى .. وقال ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا السورة فى غير الصلاة فيسجد فنسجد معه حتى لا يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته) متفق عليه .

وروى أبو بكر قال : كان النبى ﷺ إذا جاءه الشىء يسر به خر ساجدا) ذكره صاحب الكافى .. وروى عبد الله بن زيد قال : (خرج النبى ﷺ يستسقى فتوجه إلى القبلة يدعو وحول رداءه وصلى ركعتين جهر فيهما بالقراءة) متفق عليه .

وعن عائشة قالت : (خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فبعث منادياً فنادى الصلاة جامعة وخرج إلى المسجد وصف الناس وراءه وصلى أربع ركعات فى ركعتين وأربع سجدات) متفق عليه .

وروى ابن عباس : (أن النبى ﷺ صلى ست ركعات وأربع سجدات) رواه مسلم، وهو أيضا فى باب الخسوف ..

وقال عمر : (صلاة الأضحى ركعتان وصلاة الفطر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ وقد خاب من افترى) رواه أحمد .

وروت عائشة أن رسول الله ﷺ قال : (التكبير فى الفطر والأضحى فى الأولى سبع تكبيرات وفى الثانية خمس تكبيرات سوى تكبيرتى الركوع) رواه أبو داوود .

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أملح ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر) متفق عليه .

وروى أبو سعيد أن رسول الله ﷺ قال: (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر بما استطاع من طهر ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم صلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى) رواه البخاري.

وقال رسول الله ﷺ لبلال: (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة. قال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي) رواه البخاري.

هذا عرض سريع للصلاة في الإسلام وقد سن الرسول ﷺ أن ترافق بعض الصلوات أذكار معينة فمثلاً عن ثوبان قال: (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام) رواه مسلم.

وعن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد) متفق عليه.

وعن عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن،،لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر) رواه مسلم.

وعن كعب بن عميرة عن رسول الله ﷺ قال: (معقبات لا يخيب قائلهن - أو فاعلهن - دبر كل صلاة مكتوبة: ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وأربعاً وثلاثين تكبيرة) رواه مسلم.

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات: (اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من فتنة القبر) رواه البخاري.

وعن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: (يا معاذ والله إنى لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) رواه أبو داوود بإسناد صحيح.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال) رواه مسلم.

وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضى الله عنها أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال: (ما زلت على الحال التى فارقتك عليها؟ قالت: نعم.. فقال النبى ﷺ: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته) رواه مسلم.

* * *

الركن الثالث : الزكاة

(أ) نظرات عامة فى الزكاة :

١ – إن مرتكز نظام المال في الإسلام الزكاة، فهي بمثابة العمود الفقرى فيه إذ أن نظام المال فى الإسلام يقوم على أساس الاعتراف لله بأنه المالك الأصيل، وبالتالى الاعتراف بأن له وحده حق تنظيم قضية التملك والحقوق فيه ومآله، والزكاة هى التعبير العملى عن هذا كله، إذ أنها أهم الحقوق التى جعلها الله فى الملك، وليست كلها كما يفهم بعض الناس.. فقد ورد فى الحديث : (إن فى المال حقاً سوى الزكاة) إلا إن هذه الزكاة هى أهم الحقوق فى المال، ولذلك كانت رمز الاستسلام لله فى قضايا المال كلها يقول عليه السلام: (والصدقة برهان).. ومن دراستها يفهم الكثير من مواقف الإسلام من قضية رأس المال.

من هذه المواقف :

– أن كنز المال وتجميده ليس وضعا صحيحا للمال، بل تشغيله هو الوضع الصحيح، والزكاة هى التنظيم العملى لهذا.. إذ أن صاحب المال عندما يعطله عن العمل مع دفعه زكاته يتنازل عن جزء منه سنوياً، مما يؤدى إلى تقلص رأس المال بالنهاية.

فمثلا لو كان إنسان يملك الملايين ولا يشغلها فهو سيدفع منها سنويا ٢,٥٪ زكاة، ففى خلال سنوات ستزول هذه الملايين كلها ما عدا النصاب، وإذن فصاحب رأس المال مضطر لتشغيله وتنميته إذا أراد المحافظة على رأسماله، حتى تكون الزكاة على حساب الربح لا على حساب رأس المال نفسه، وعلى هذا فنظام الزكاة يجعل رأس المال فى حالة حركة دائمة بشكل عفوى ولكنه قسرى، ومن هنا نفهم معنى الآية :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[التوبة : ٣٤] فلا كنز ما دام الإنفاق فى سبيل الله موجودا وأقله، الزكاة وفى الأثر (ما أديت زكاته فليس بكنز) إذ لا تجتمع الكنزية والزكاة.. ومن هنا نفهم كذلك خطأ الذين فهموا أن الإسلام يحرم على الإنسان أن يدخر أمواله ولو أدى زكاتها، أخذا من الآية.. أن المفهوم الصحيح هو الذى ذكرناه، وهو أن صاحب رأس المال ما دام يدفع

زكاته فإنه مضطر لتشغيله لينموا، أو أنه سيزول تلقائياً.. وفى كلتا الحالتين تنعدم الكنزية فى الأموال.

– ومنها: أن رأس المال ليس من حقه الربح لأنه رأسمال مجرد، بل للآخرين فيه حق لمجرد أنه رأسمال، ولا يستحق رأس المال الربح بعد هذا إلا فى مقابل استعداده لتحمل الخسارة.. فمثلا فى شركة المضاربة، إنما يستحق صاحب رأس المال الربح فى مقابل تحمله الخسارة كلها فى حالة الخسران، وكذلك فى كل حالة يعمل فيها رأس المال، إنما يستحق الربح فى مقابل استعداده لتحمل الخسارة، أما رأس المال المجرد، فإنه يستحق النقصان بالزكاة ولا يستحق الربح بدون مقابل.

وهذا فارق دقيق كبير بين النظرة الرأسمالية والشيوعية من جهة وبين النظرة الأساسية إلى قضية رأس المال.

فالنظرية الرأسمالية ترى أن رأس المال يستحق الربح دائما وبلا مقابل، ومن هنا أجازوا الربا وأمثاله مما يكون فيه رأس المال رابحاً فى كل حالة، ولم يفرضوا على رأس المال أى ضريبة، وإنما تكون الضرائب على أرباح رأس المال.

والنظرية الشيوعية التى تعتبر رأس المال مستغلاً فى كل حالة، وأنه يمتص أرباح العمال وقد عبر عن هذا ماركس بنظرية فضل القيمة التى هى: أن العامل عندما يشتغل عند رب العمل يقدم إنتاجاً قيمته أكثر مما يعطيه رب العمل من أجر، هذا الفائض من الربح يذهب إلى يد صاحب رأس المال مستغلاً جهود مئات البشر بواسطة ماله.

إن الإسلام بواسطة أنظمته كلها، وبواسطة الزكاة قد جعل المسألة فى وضع لا يمكن أن يكون هناك أعدل منه.

المال يربح فى مقابل تحمله الخسارة.

وصاحب رأس المال يربح فى مقابل إدارته وتحمله الخسارة.

وعلى صاحب رأس المال أن يدفع سنوياً، لا من الأرباح وحدها، بل من الأرباح ورأس المال هذه النسبة المئوية الثابتة، لأصناف من البشر معينين، وعلى هذا فقد أصبح فضل القيمة التى تصوره ماركس لا يعود إلى جيب الرأسمالى منه إلا مقدار ضئيل يستحقه، والبقية ترجع إلى أصناف من المجتمع تستحقها لتحقيق التضامن الاجتماعى الذى يجب أن يشارك فيه كل إنسان قادر، هذا مع ملاحظة أن العامل عند رب العمل ينبغى أن يأخذ حقه كاملاً كما سنرى إن شاء الله عند البحث عن منهاج المال فى الإسلام.

٢ – هذه الزكاة حاول بعض الناس أن يصورها بأنها ضريبة كبقية الضرائب التى تفرضها الدولة، وحاول بعض الناس أن يصورها بأنها صدقة طوعية لا علاقة للدولة بها، وكلتا النظريتين خاطئة خطأ جسيماً فى هذا الموضوع والنظرة السليمة لهذا الموضوع – والله أعلم – هى ما يلى:

– إذا اعتبرنا ضريبة الدولة العادلة هي ما تأخذه في مقابل تحقيقها للمشاريع اللازمة للأمة، وعلى هذا تكون الضريبة العادلة حق الدولة في المال، فإن الزكاة تختلف عن هذا بأنها حق أصناف معينين من الناس في المال، فليست الزكاة حق الدولة، وإنما هي حق أصحابها الذين عينهم الشارع، والذين سنراهم أثناء هذا البحث.

– إلا أن الدولة هي المسئولة عن وصول هذه الحقوق المالية إلى أصحابها بل اعتبرها القرآن من الواجبات الأساسية للدولة أن تقوم بهذه المهمة فقال: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١].

وعلى هذا فالوضع العادي في دولة إسلامية، أن تنشيء هذه الدولة مؤسسة مستقلة، مهمة هذه المؤسسة جباية الزكوات وتوزيعها، مع ملاحظة أن نفقات هذه المؤسسة بموظفيها ينبغي أن تكون من مال الزكاة أو نقول: رواتب الموظفين من مال الزكاة، والسكن وتوابعه يكون من خزينة الدولة.

وهناك ناحية مهمة، هي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد قد أوكل إلى أصحاب رؤوس الأموال الباطنة (الذهب والفضة) أن يخرجوا بأنفسهم زكوات أموالهم، وذلك نتيجة لما أصبح عليه المسلمون من سعة في عصره، فهل يبقى هذا الأمر معمولاً به في عصرنا؟

الذي نقوله: إن تعقيد الحياة الاقتصادية في زماننا، والحاجة إلى وجود رؤوس أموال ضخمة متجمعة في مؤسسات خاصة، وتعقيد طرق الإنفاق و الحاجة إلى تنظيمها، كل هذا يجعل الحاجة ملحة للعودة بالمسألة إلى ما كانت عليه زمن رسول الله ﷺ والخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر. وهو أن تتبنى الدولة الجمع كله وهي التي تقوم بعملية التوزيع، خاصة وقد تأكدنا أن كثيراً من الناس لا يدفعون زكوات أموالهم.

– **وقد وضع الإسلام بيد الدولة سلطة واسعة في موضوع جباية الزكاة فأعطاها حق محاربة المانعين للزكاة إذا كانوا فئة قوية**، وقد روى في ذلك: (لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال.. والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. قال عمر – رضي الله عنه – فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) متفق عليه.

كما أعطى الإسلام الدولة حق مصادرة جزء من مال مانع الزكاة إذا كان فردا فقد ورد في الحديث: (من أعطاها مؤتجراً فله أجرها ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا، لا يحل لآل محمد منها شيء) فعلى هذا إذا ثبت أن إنساناً ما، معه مال، ويمنع زكاته، فللدولة عدا عن محاسبته الدقيقة على زكواته الممنوعة، أن تعاقبه بأخذ شطر ماله عقوبة مالية.

٣ – والأموال التي تجب فيها الزكاة خمسة:

(أ) عروض التجارة. (ب) الذهب والفضة وما يلحق بهما من نقد.

(جـ) الزروع والثمار. (د) الأنعام. (هـ) المعدن والركاز.

ويلاحظ أن أئمة الاجتهاد في الإسلام، قد اختلفت اجتهاداتهم في جزئيات كثيرة من هذه النواحي الخمسة، وهذا يتيح للدولة الإسلامية آفاقاً واسعة في التطبيق، فإنها تستطيع أن تأخذ من الآراء المطروحة أمامها للقضية الواحدة الرأي الأنسب لكل وضع من الأوضاع. فقد ترى مثلا أن الأنسب في بعض الحالات، أن تتبنى رأي الحنابلة في زكاة المعدن، وقد تأتي حالة يستغني بها الناس فترى الدولة أن تتبنى رأي الشافعية، فتعدد الآراء الاجتهادية في القضية الواحدة التي ليس فيها نص لصالح المسلمين، توسعة عليهم، ولصالح حكومتهم التي لا تضيق أمامها سبل الحل لأي مشكلة، وسنستعرض بإيجاز كل قسم من أقسام الأموال التي تجب فيها الزكاة.

١ – زكاة النقـــود:

المقصود بالنقود الآن الذهب والفضة، والأوراق والعملة المتداولة المفيدة مالاً، سواء كانت نحاسية أو غيرها، فكلها مال تجب فيه الزكاة المفروضة المقدرة، وهي وإن كانت في الأصل فرضت على النقد الذي هو ذهب وفضة، إلا أن الأوراق والعملة المالية لها حكم الذهب والفضة، لأنها مسنودة بهما عادة، ويستطيع الإنسان أن يحصل بدلها ذهباً أو فضة مباشرة.

فما ملكه الإنسان من ذهب أو فضة أو عملة مالية، فعليه زكاته إذا كان مالكاً أكثر من الحد الأدنى الذي أهدر الشارع وجوب الزكاة فيه، وحال على بداية هذا التملك حول قمري كامل، فإن عليه أن يدفع مما ملكه ٢,٥٪ وما يربحه خلال العام، يضاف إلى الرأسمال، ويدفع عن الجميع، فالزكاة مستحقة على المال وعلى نموه خلال العام.

٢ – عروض التجارة:

وكل شيء اشتراه الإنسان ونواه للتجارة، فإنه يقوَّم وتدفع زكاته، كزكاة النقود، وتخرج زكاة العروض مضافة إلى النقد إن كانا مملوكين لواحد، فإذا حال الحول على مبدأ ملك النصاب، أو على آخر زكاة زكاها الإنسان، فإنه يقوم ما يملكه من عروض

التجارة، ويضيفه إلى ما يملكه من نقد، ثم يخرج زكاة الجميع بعد أن يحذف من الجميع ما عليه من ديون حتى مهر زوجته على مذهب الحنفية.

أما الديون التى للإنسان، فهى تضاف إلى هذا وهذا، ويخرج زكاة الجميع فى رأس الحول.

يقول فقهاء الحنفية:

أما الدين القوى كدين القرض والتجارة، فإنه يزكى إذا قبض عن كل السنين الماضية، وكلما استلم دفعة منه يزكيها إذا كانت ليست أقل من أربعين درهماً (الدرهم حوالى - ٣٥ - قرش سورى).

وأما الدين المتوسط، كدين كان نتيجة عن بيعه شيئاً من حاجاته الأصيلة، كدار السكنى وثيابه، فكذلك يدفع زكاته عما مضى من سنين إذا كان ما قبضه ليس أقل من مئتى درهم.

وأما الدين الضعيف كدين المرأة على زوجها من مهرها، أو دين زوجها عليها من خلعها، فإنه ليس عليه زكوات عن ما مضى قبل القبض، فإذا ما قبض يزكى بعد حولان الحول عليه.

٣ - زكاة الزروع والثمار:

قال الحنفية:

الأرض العشرية فى كل ما يخرج منها الزكاة، القليل والكثير، وما يبقى وما لا يبقى، عشرة بالمئة من الخارج، إذا كانت الأرض تسقى بماء السماء، أو بماء سيح لم يكلف شيئا، وخمسة بالمئة إذا كانت تسقى بكلفة كآلة.

وقال الشافعية:

ما يخرج من الأرض سواء كانت عشرية أو خراجية فيه زكاة إذا توفرت فيه شروط معينة:

١ - أن يكون مما يقتات به. ٢ - أن يكون مملوكاً لمالك معين.

٣ - أن يبلغ نصاباً، والنصاب عندهم خمسة أوسق والوسق يعدل ١٢٠ كيلو جراماً.

٤ - إذا كان ثمراً، أن يكون عنباً ورطباً، أما غيرها من الفواكه فلا زكاة فيها عندهم.

فإذا ما اجتمعت شروط الزكاة فى نتاج الأرض زكى فأخرج العشر مما يسقى بلا كلفة، ونصف العشر فيما يسقى بكلفة، وثلاثة أرباع العشر فيما كان مختلطاً.

ومذهب الحنابلة والمالكية قريب من مذهب الشافعية.

٤ - زكاة الأنعـــام:

الأنعام إن كانت للتجارة فهى من عروض التجارة.

وإن كانت للدر والنسل والعمل وتعلف كل العام، فليس فيها زكاة إلا على رأى المالكية، إذا بلغت نصاباً، وإن كانت للسوم والرعى. ففى البقر بأنواعه، والغنم مع المعز والجمال بأنواعها زكاة إذا بلغت نصاباً وحال عليها الحول.

والنصاب فى الإبل خمس، وفى البقر ثلاثون، وفى الغنم أربعون، فإذا بلغت الإبل خمسا ففيها شاة وإذا بلغت البقر ثلاثين ففيها بقرة عمرها سنة، وإذا بلغت الغنم أربعين ففيها شاة، وهذا بداية النصاب ثم تكون الزكاة كل عدد بحسابه الخاص المقرر بالسنة الصحيحة.

٥ - زكاة المعدن:

قال المالكية:

المعدن هو ما خلقه الله تعالى فى الأرض من ذهب أو فضة ونحاس ورصاص ومغرة وكبريت، وإنما تجب الزكاة فى الذهب والفضة المستخرجين من الأرض إذا بلغا نصاباً، سواء كان المستخرج مسلماً أو غير مسلم، فى أرض الإسلام على قول، وفى قول آخر لابد من الإسلام، ولا يشترط للوجوب حولان الحول.

وقال الحنابلة:

المعدن هو كل ما تولد من الأرض وكان من غير جنسها، سواء كان جامداً كذهب وفضة وبللور وعقيق ونحاس، أو مائعاً كزرنيخ ونفط ونحو ذلك فيجب على من استخرج من ذلك شيئا وملكه ربع العشر بشرطين:

الأول: أن يبلغ بعد تصفيته نصاباً من ذهب أو فضة، أو ما تساوى قيمته نصاباً من غيرهما.

الثانى: أن يكون المستخرج مسلما.

فإذا توفر الشرطان فقد وجب إخراج ربع العشر زكاة تصرف فى مصارفها.

وقال الشافعية:

تجب الزكاة فى المستخرج من الأرض إذا كان ذهباً أو فضة فقط، دون اشتراط حولان الحول، وكان المستخرج قد استخرجه من أرض مباحة، أو مملوكة للمستخرج.

٤ - مما تقدم ندرك مقدار ما يمكن أن تجمعه الدولة فى صندوق الزكاة من الزكاة، خاصة إذا أخذت بأعلى أقوال الأئمة إيجاباً، وبالدمج بين بعض الأقوال لاستخراج حكم جديد مناسب، لقضية ظهر فى عصرنا بعض جوانبها أكثر من السابق.

فكل الأوراق النقدية الموجودة فى أيدى الأفراد، أو الشركات التى ترجع لأفراد فيها الزكاة.

وكل عروض التجارة الموجودة فى الأسواق والمصانع وغيرها فيها الزكاة.

وكل الأغنام والأبقار والجمال فيها الزكاة بعد إسقاط العفو.

والزروع والثمار فيها كذلك حقوق.

والمستخرج من الأرض وخاصة البترول فيه كذلك حقه، وكل ذلك لصناديق الزكاة، وكل هذا لحل مشاكل المسلمين الاقتصادية بشكل عملى ومباشر.

٥ – هذه الأموال التى تتجمع فى صناديق الزكاة تنفق على فئات ثمان:

١ – الفقراء. ٢ – المساكين. ٣ – موظفو الزكاة. ٤ – المؤلفة قلوبهم.
٥ – الغارمون. ٦ – مساعدة العبيد على الحرية. ٧ – المسافر المنقطع.
٨ – فى سبيل الله.

وقد جمعت هذه الأصناف كلها الآية: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦٠].

ويدخل فى الغارمين من استدان ليتزوج، أو عقد العقد وأصبح المهر عليه ديناً، فإنه يأخذ ليفى دينه. ويدخل فى الغارمين من كان عليه دين كاثر عن بنائه دار لسكناه وسكنى عياله، فيعطى ما يفى دينه، ويدخل فى الفقراء الطلاب الذين قد بلغوا وليس لهم ملك خاص بهم، ولو كان آباؤهم أغنياء فيعطون راتباً شهرياً حتى ينهوا دراساتهم. **ويدخل فى الفقراء والمساكين العمال الذين لا يوجد لديهم رأسمال يقيمون به عملهم فيعطون رأسمال كافياً، والطبيب عامل والصيدلى عامل، فإذا تخرج الطبيب وليس لديه آلة عمل، يعطى من مال الزكاة ما يقيم به عيادته.**

ويدخل – فى صنف سيبل الله – أن يعطى المجاهدون والفدائيون وكل فقراء المسلمين ثمن سلاح ليكون بيدهم بشكل دائم. ويدخل فى المؤلفة قلوبهم، أن يعطى الزعماء السياسيون المجمدون عن العمل السياسى فى الدولة الإسلامية، وأصحاب الصحف فى زماننا. ويدخل فى الفقراء والمساكين العاجزون عن العمل، فيشترى لهم على مذهب الشافعية عقاراً يملكونه ويعيشون من ريعه مدى حياتهم، إذا كان أمثالهم يعيشون زمنا يكون ما يأخذونه خلاله يساوى ثمن عقار، وإلا فيدفع لهم رواتب حتى يعيشوا.. **ويدخل فى الفقراء والمساكين كل العاطلين عن العمل لفقدان العمل، حتى يجدوا عملاً، أو توجد لهم الدولة عملاً إذا كانوا لا يملكون مالاً.**

ولتوضيح بعض مضامين ما تقدم ننقل هذا البحث الطيب للأستاذ يوسف القرضاوى[١] يقول تحت عنوان: من هم الفقراء والمساكين أو الذين تصرف لهم الزكاة:

(١) خطتنا فى هذا الكتاب إذا وجدنا بحثا ناضجا يوفى البحث الذى نريد كتابته حقه أن ننقله مستغنين بذلك عن كتابته بقصد الاستفادة من كل ما كتب عن الإسلام.

«عنى القرآن الكريم بمصارف الزكاة أكثر مما عنى بمصادرها ووعائها، لأن جباية الأموال قد تكون سهلة على أصحاب السلطات بوسائل شتى، ولكن الصعب حقاً هو صرفها فى وجوهها، وإيتاؤها أهلها، ووضعها موضعها.. ومن ثم لم يدع القرآن تحديد مصارف الزكاة لرأى حاكم وهواه، ولا لطمع طامع يريد أن يزاحم المستحقين بالباطل.. فنزل كتاب الله يبين الأشخاص والجهات التى تصرف فيها ولها الزكاة، فكان ذلك رداً على المنافقين الذين سال لعابهم شرهاً إلى أموال الزكاة بغير حق، ولمزوا رسول الله ﷺ لأنه أهملهم ولم يستجب لأطماعهم.. قال تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾ [التوبة: ٥٨].. إلى أن قال: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقد روى أبو داوود أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال له: أعطنى من الصدقات فقال له: أن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقة حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك).

والذى يعنينا فى بحثنا هذا من تلك الأجزاء أو المصاريف الثمانية هو الفقراء والمساكين وهما أول المصارف التى جعلها الله أهلاً لاستحقاق الزكاة.

قد اختلف الفقهاء والمفسرون فى تحديد مفهوم الفقير والمسكين، والفرق بينهما، وأيهما أسوأ حالا؟ وهو خلاف لا يترتب عليه حكم فى باب الزكاة بعد أن اتفق الجميع على أنهما صنفان لجنس واحد هو أهل العوز والحاجة.

والراجح: أن الفقير هو اسم للمحتاج الذى لا يسأل، والمسكين هو الذى يسأل الناس ويطوف عليهم.

ويرى جمهور الفقهاء أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين.. وحدده بعضهم بقوله: الفقير من لا يملك شيئاً أو يملك دون نصف الكفاية لنفسه ولمن يعوله.. والمسكين من يملك نصف الكفاية أو معظمها ولكن لا يملك تمام الكفاية.

المستورون المتعففون أولى بالزكاة:

ولقد يظن كثير من الناس – من سوء العرض لتعاليم الإسلام، وسوء التطبيق لها، أن الفقراء والمساكين المستحقين للزكاة، هم أولئك المتبطلون أو المتسولون الذين احترفوا سؤال الناس، وتظاهروا بالفقر والمسكنة، ومدوا أيديهم للغادين والرائحين فى المجامع والأسواق، وعلى أبواب المساجد وغيرها، وأهل هذه الصورة للمسكين كانت ماثلة فى أذهان كثير من الناس منذ زمن قديم، حتى فى زمن الرسول ﷺ مما جعله

عليه السلام ينبه الناس على أهل الحاجة الحقيقيين الذين يستحقون معونة المجتمع بحق، وإن لم يفطن لهم الكثيرون، فقال عليه الصلاة والسلام فى ذلك: (ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذى يتعفف اقرأوا إن شئتم ﴿ **لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾ ومعنى ﴿ **لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾: لا يلحون فى المسألة، ولا يكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وعنده ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف.

وهذا وصف الفقراء المهاجرين انقطعوا إلى الله ورسوله، وليس لهم مال ولا كسب يردون به على أنفسهم ما يغذيهم[١].

قال الله تعالى فى وصفهم والتنوية بشأنهم: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فهؤلاء وأشباههم أحق الناس أن يعانوا كما أرشدنا رسول الله ﷺ فى حديثه المذكور.. وفى رواية أخرى: (ليس المسكين الذى يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس)[٢]. ذلك هو المسكين الجدير بالمعونة، وإن كان الناس يغفلون عنه، ولا يفطنون له، ولكن رسول الإسلام لفت الأنظار إليه، ونبه العقول والقلوب إليه، وإنه ليشمل كثيراً من أصحاب البيوتات، وأرباب الأسر، والمتعففين الذين أخنى عليهم الزمن، أو قعد بهم العجز، أو قل مالهم وكثرت عيالهم، أو كان دخلهم من عملهم لا يشبع حاجاتهم المعقولة.

وقد سئل الإمام الحسن البصرى عن الرجل تكون له الدار والخادم، أيأخذ من الزكاة؟ فأجاب بأنه يأخذ إن احتاج ولا حرج عليه[٣].

وسئل الإمام أحمد فى الرجل: إذا كان له عقار يستغله، أو ضيعة تساوى عشرة آلاف درهم أو أقل من ذلك، أو أكثر، ولكنها لا تقيمه - يعنى لا تقوم بكفايته - فقال: يأخذ من الزكاة[٤].

وقال الشافعية: إذا كان له عقار، وينقص دخله عن كفايته، فهو فقير أو مسكين.. فيعطى من الزكاة تمام كفايته ولا يكلف بيعه[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٤.
(٢) الحديث بروايته - متفق عليه.
(٣) الأموال لأبى عبيد - ص ٥٥٦.
(٤) المغنى مع الشرح الكبير جـ ٢ ص ٥٢٥.
(٥) المجموع جـ ٦ ص ١٩٢.

وقال المالكية: يجوز دفع الزكاة لمن يملك نصاباً أو أكثر لكثرة عياله، ولو كان له الخادم والدار التى تناسبه[١].

وقال الحنفية: لا بأس بأن يعطى من الزكاة من له مسكن، وما يتأثث به فى منزله، وخادم وفرس وسلاح، وثياب البدن، وكتب العلم إن كان من أهله، واستدلوا بما روى عن الحسن البصرى أنه قال: (كانوا يعطون الزكاة لمن يملك عشرة آلاف درهم من الفرس والسلاح والخادم والدار).

وقوله (كانوا): كناية عن أصحاب رسول الله ﷺ وهذا لأن هذه الأشياء من الحوائج اللازمة التى لابد للإنسان منها، فكان وجودها وعدمها سواء[٢].

ليس المقصود بالزكاة إذن المعدم المترب فقط، ذلك الذى لا يجد شيئا، أو لا يملك شيئاً، وإنما يقصد أيضاً ذلك الذى يجد بعض الكفاية، ولكنه لا يجد كل ما يكفيه.

لاحظ فى الزكاة لقوى مكتسب:

وإذا كان مدار الاستحقاق هو الحاجة – حاجة الفرد إلى كفاية نفسه ومن يعوله – فهل يعطى المحتاج وإن كان متبطلاً يعيش عالة على المجتمع، ويحيا على الصدقات والإعانات، وهو مع ذلك قوى البنيان، قادر على الكسب، وإغناء نفسه بكسبه وعمله؟

لقد فهم ذلك بعض الناس خطأ، فظنوا الزكاة إغراء بالبطالة، وتشجيعاً للكسالى والقاعدين، ولكن نصوص الإسلام ومبادئه تقضى بغير هذا.

فالواجب على كل قوى قادر على العمل، أن يعمل، وأن ييسر له سبيل العمل، وبذلك يكفى نفسه بكد يمينه وعرق جبينه، وفى الحديث الصحيح: (ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده)[٣].. ومن أجل ذلك رأينا رسول الإسلام يقول فى صراحة ووضوح: (لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى)[٤] – والمرة القوة والشدة.. والسوى المستوى السليم الأعضاء: –

ولا اعتداد بالقدرة الجسمانية واللياقة البدنية، ما لم يكن معها كسب يغنى ويكفى، لأن القوة بغير كسب، لا تكسو من عرى، ولا تطعم من جوع، قال النووى: (إذا لم يجد الكسوب من يستعمله حلت له الزكاة لأنه عاجز)[٥]. فإذا كان الحديث المذكور قد اكتفى بذكر (ذى المرة السوى) فإن حديثا آخر قيد هذا الإطلاق وأضاف إلى (القوة) (الاكتساب) فعن عبيد الله بن عدى الخيار، أن رجلين أخبراه أنهما أتيا

---

(١) شرح الخوشى وحاشية العدوى على متن خليل جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٢) بدائع الصنائع للكاسانى جـ ٢ ص ٤٨ .
(٣) رواه البخارى وغيره – الترغيب والترهيب للمنذرى جـ ٢، أول كتاب البيوع.
(٤) رواه الخمسة، وحسنه الترمذى.　　(٥) المجموع جـ ٢ ص ١٩١ .

النبى ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلب فيهما البصر ورآهما جلدين (قويين) فقال: إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها – أى فى الزكاة – لغنى ولا لقوى مكتسب)[1].

وإنما خيرهما الرسول ﷺ لأنه لم يكن على علم بباطن أمرهما، فقد يكونان فى الظاهر جلدين قادرين، ويكونان فى الواقع غير مكتسبين، أو مكتسبين كسباً لا يكفى.

واستدل العلماء بالحديث على أنه ينبغى لولى الأمر – أو رب المال – وعظ آخذ الزكاة الذى لا يعرف حقيقة حاله، وتعريفه أنها لا تحل لغنى، ولا لقادر على الكسب، أسوة برسول الله[2] ﷺ، والمراد بالاكتساب: اكتساب قدر الكفاية، وإلا كان من أهل الاستحقاق، والعجز عن أصل الكسب ليس بشرط. ولا يصح أن يقال بوقوف الزكاة على الزمنى والمرضى والعجزة فحسب.

قال النووى: والمعتبر كسب يليق بحاله ومروءته: وأما ما لا يليق به فهو كالمعدوم[3].

على أن حديث تحريم الزكاة على (ذى المرة السوى) يعمل بإطلاقه بالنسبة للقادر الذى يستمرىء البطالة مع تهيؤ فرص الكسب الملائم لمثله عرفاً.

والخلاصة: أن كل قادر على الكسب، مطلوب منه شرعاً أن يعمل ليكفى نفسه بنفسه فمن كان عاجزاً عن الكسب لضعف ذاتى. كالصغر والأنوثة، والعته والشيخوخة والعاهة والمرض، أو كان قادراً ولم يجد باباً حلالاً للكسب يليق بمثله، أو وجد ولكن كان دخله من كسبه لا يكفيه وعائلته، أو يكفيه بعض الكفاية دون تمامها، فقد حل له الأخذ من الزكاة ولا حرج عليه فى دين الله.. هذه هى تعاليم الإسلام الناصعة، التى جمعت بين العدل والإحسان، أو العمل والرحمة، أما مبدأ الماديين القائلين: (من لا يعمل لا يأكل) فهو مبدأ غير طبيعى، وغير أخلاقى، وغير إنسانى بل إن فى الطيور والحيوانات أنواعاً يحمل قويها ضعيفها، ويقوم قادرها بعاجزها.. أفلا يبلغ الإنسان مرتبة هذه العجماوات؟.

المتفرغ للعبادة لا يأخذ من الزكاة:

ومن الرائع حقاً ما ذكره هنا فقهاء الإسلام فقالوا: إذا تفرغ إنسان قادر على الكسب لعبادة الله تعالى، بالصلاة والصيام ونحوهما لا يعطى من الزكاة، لأنه مأمور بالعمل، والمشى فى مناكب الأرض، ولا رهبانية فى الإسلام والعمل فى هذه الحال لكسب العيش من أفضل العبادات إذا صدقت فيه النية، والتزمت حدود الله.

---

(١) رواه أحمد وأبو داوود والنسائى وقال أحمد: ما أجوده من حديث. وقال النووى: هذا الحديث صحيح، المجموع جـ ٦ ص ١٨٩، وقد سكت عنه أبو داوود المنذرى (مختصر السنن) جـ ٢ ص ٢٣٣.

(٢) نيل الأوطار جـ ٤ ص ١٧٠. (٣) المجموع جـ ٦ ص ١٩٠.

المتفرغ للعلم يأخذ من الزكاة:

فأما إذا تفرغ لطلب علم نافع، وتعذر الجمع بين الكسب وطلب العلم، فإنه يعطى من الزكاة قدر ما يعينه على أداء مهمته، وما يشبع حاجاته، ومنها كتب العلم التى لابد منها لمصلحة دينه ودنياه[1] وإنما أعطى طالب العلم لأنه يقوم بفرض كفاية، ولأن فائدة علمه ليست مقصورة عليه، بل هى لمجموع الأمة، فمن حقه أن يعان من مال الزكاة لأنها لأحد رجلين، إما لمن يحتاج من المسلمين، أو لمن يحتاج إليه المسلمون وهذا جمع بين الأمرين.

واشترط بعضهم أن يكون نجيباً يرجى تفوقه، ونفع المسلمين به، وإلا لم يستحق الأخذ من الزكاة ما دام قادرا على الكسب[2] وهو قول وجيه، وهو الذى تسير عليه الدول الحديثة، حيث تنفق على النجباء والمتفوقين بأن تتيح لهم دراسات خاصة، أو ترسلهم فى بعثات خارجية أو داخلية.

كم يعطى الفقير والمسكين من الزكاة:

ولكى تكمل أمام أعيننا الصورة السوية للزكاة الإسلامية، وأثرها فى محاربة الفقر والمسكنة، لابد أن نجيب هنا عن سؤال مهم هو: كم يعطى الفقير والمسكين من مال الزكاة؟.

ووجه الأهمية فى الإجابة على هذا السؤال: أن السائد فى أذهان عامة الناس مسلمين وغير مسلمين - أن الفقير يأخذ من الزكاة دراهم معدودة، أو حفنات من حبوب أو أرغفة من خبز يسد بها رمقا، أو يكفى بها حاجة أياماً معدودات أو شهراً أو شهرين.. ثم يظل الفقير بعد ذلك على فقره صفر اليدين، مادا يده بالسؤال، محتاجاً أبدا إلى المعونة.. وحينئذ تكون الزكاة أشبه بالأقراص المسكنة للآلام، إلى وقت محدود، لا بالأدوية الناجمة التى تجتث الآلام من جذورها.

وسنتبين بعد دراسة نصوص الإسلام، ومذاهب فقهائه: أن هذا السائد فى أفهام الناس وهم عريض لا أساس له من شريعة الإسلام.

المذهب الأول: إعطاء الفقير كفاية العمر:

إن أقرب المذاهب فى هذا الشأن إلى منطق الإسلام ونصوصه: أن يعطى الفقير ما يستأصل شأفة فقره، ويقضى على أسباب عوزه وفاقته، ويكفيه بصفة دائمة، ولا يحوجه إلى الزكاة مرة أخرى.

---

(١) انظر شرح غاية المنتهى جـ٢ ص ١٣٧ طبع المكتب الإسلامى.
(٢) المجموع جـ٦ ص ١٩٠، ١٩١.

قال الإمام النووى فى (المجموع) :

المسألة الثانية فى قدر المصروف إلى الفقير والمسكين: قال أصحابنا العراقيون، وكثيرون من الخراسانيين، يعطيان ما يخرجهما من الحاجة إلى الغنى، وهو ما تحصل به الكفاية على الدوام.. وهذا هو نص الشافعي - رحمه الله - واستدل له الأصحاب بحديث قبيصة بن المخارق الهلالى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (لا تحل المسألة إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة[1] فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه: قد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة. حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال: سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة - يا قبيصة - سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً). رواه مسلم فى صحيحه[2].

قال أصحابنا: فأجاز رسول الله ﷺ المسألة حتى يصيب ما يسد حاجته فدل على ما ذكرناه.

قالوا: فإن كان عادته الاحتراف، أعطى ما يشترى به حرفته، أو آلات حرفته، قلت قيمة ذلك أم كثرت، ويكون قدره بحيث يحصل له من ربحه ما يفى بكفايته غالباً تقريباً، ويختلف ذلك باختلاف الحرف، والبلاد والأزمان والأشخاص. وقدرت جماعة من أصحابنا ذلك فقالوا:

من يبيع البقل يعطى خمسة دراهم أو عشرة.

ومن حرفته بيع الجوهر يعطى عشرة آلاف درهم مثلاً إذا لم يتأت له الكفاية بأقل منها.

ومن كان تاجراً أو خبازاً أو عطاراً أو صرافاً أعطى بنسبة ذلك.

ومن كان خياطاً أو نجاراً أو قصاراً أو قصاباً أو غيرهم من أهل الصنائع، أعطى ما يشترى به الآلات التى تصلح لمثله.

وإن كان من أهل الضياع (المزارع) يعطى ما يشترى به ضيعة، أو حصة فى ضيعة تكفيه غلتها على الدوام.

قال أصحابنا: فإن لم يكن محترفاً ولا يحسن صنعة أصلاً، ولا تجارة ولا شيئا من أنواع المكاسب، أعطى كفاية العمر الغالب لأمثاله فى بلاده.. ولا يتقدر بكفاية سنة[3]. ومثلوا لذلك بأن يعطى ما يشترى به عقارا يكريه ويستغل منه كفايته.

---

(١) الحمالة: ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة.

(٢) صحيح مسلم جـ ٣ ص ٦٧، طبعة دار التحرير.

(٣) المهذب وشرحه، المجموع جـ ٦ ص ١٩٣ - ١٩٥ .

هذا ما ذهب إليه الإمام الشافعى وأصحابه، ومن ذهب مذهبه.. وقد روى عن الإمام أحمد أيضا: أنه أجاز أن يأخذ الفقير تمام كفايته دائما، بمتجر أو آلة صنعة، أو نحو ذلك، واختار هذه الرواية بعض علماء مذهبه(١).

فهذا كلام لم نقله من عند أنفسنا وإنما قاله أئمة الإسلام وفقهاؤه مستندين إلى نصوص الإسلام وقواعده وروحه العامة.. وهو كلام نير يزاحم الشمس فى وضوحه وإشراقه وإباحته عن هدف الإسلام فى القضاء على الفقر وإغناء الفقير بالزكاة.

إذا أعطيتم فأغنوا:

وهذا المذهب هو الموافق لما جاء عن الفاروق عمر رضى الله عنه. فلقد رأينا السياسة العمرية الراشدة، تقوم على هذا المبدأ الحكيم الذى أعلنه الفاروق رضى الله عنه (إذا أعطيتم فأغنوا)(٢). فكان عمر يعمل على إغناء الفقير بالزكاة، لا مجرد سد جوعته بلقيمات، أو إقالة عثرته بدريهمات.

جاء رجل يشكو إليه سوء الحال. فأعطاه ثلاثاً من الإبل، وما ذلك إلا ليقيه من العيلة، والإبل كانت أنفع أموالهم، وأنفسها حينذاك.. قال للموظفين الذين يعملون فى توزيع الصدقات على المستحقين: كرروا عليهم الصدقة، وإن راح على أحدهم مائة من الإبل).

وقال معلنا عن سياسته: تجاه الفقراء (لأكررن عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل)(٣).

وقال عطاء الفقيه التابعى الجليل: (إذا أعطى الرجل زكاة ماله أهل بيت المسلمين فجبرهم فهو أحب إلى)(٤).

وهذا المذهب هو الذى رجحه الإمام الحجة فى الفقه المالى فى الإسلام: أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه القيم (الأموال).

المذهب الثانى: يعطى كفاية سنة:

وهناك مذهب ثان قال به المالكية، وجمهور الحنابلة، وآخرون من الفقهاء: أن يعطى الفقير والمسكين من الزكاة ما تتم به كفايته وكفاية من يعوله لمدة سنة كاملة.. ولم ير أصحاب هذا الرأى ضرورة لإعطائه كفاية العمر.. كما لم يروا أن يعطى أقل من كفاية السنة.

وإنما حددت الكفاية بسنة لأنها - فى العادة - أوسط ما يطلبه الفرد من ضمان

---

(١) الإنصاف جـ٣ ص ٢٣٨.
(٢) الأموال: لأبى عبيد ص ٥٦٥.
(٣) الأموال ص ٥٦٥.
(٤) نفسه ص ٥٦٦.

العيش له ولأهله، وفى هدى الرسول فى ذلك أسوة حسنة، فقد صح أنه إدخر لأهله قوت سنة[١].

ولأن أموال الزكاة فى غالبها حولية، فلا داعى لإعطاء كفاية العمر، وفى كل عام تأتى حصيلة جديدة من موارد الزكاة، ينفق منها على المستحقين، ويرى القائلون بهذا المذهب، أن كفاية السنة ليس لها حد معلوم لا تتعداه من الدراهم أو الدنانير، بل يصرف للمستحق كفاية سنته بالغة ما بلغت.

فإذا كانت كفاية السنة لا تتم إلا بإعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب من نقد، أو حرث، أو ما يشبه ذلك، أعطى من الزكاة ذلك القدر، وإن صار به غنيا، لأنه حين الدفع إليه كان فقيراً مستحقاً[٢].

الزواج من تمام الكفاية:

ومن الرائع حقاً أن يلتفت علماء الإسلام إلى أن الطعام والشراب واللباس ليست هى حاجة الإنسان فحسب، بل فى الإنسان غرائز أخرى تدعوه وتلح عليه، وتطالبه بحقها من الإشباع، ومن ذلك غريزة النوع، أو الجنس التى جعلها الله موطأ يسوق الإنسان إلى تحقيق الإرادة الإلهية فى عمارة الأرض، وبقاء هذا النوع الإنسانى فيها إلى ما شاء الله، والإسلام لا يصادر هذه الغريزة، وإنما ينظمها ويضع الحدود لسيرها وفق أمر الله.

وإذا كان الإسلام قد نهى عن التبتل والاختصاء، وكل لون من ألوان مصادرة الغريزة، وأمر بالزواج كل قادر عليه، مستطيع لمؤنته (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) فلا غرو أن يشرع معونة الراغب فى الزواج ممن عجزوا عن تكاليفه المادية من المهر ونحوه.

ولا عجب إذا قال العلماء: إن من تمام الكفاية ما يأخذه الفقير ليتزوج به إذا لم تكن له زوجة واحتاج للنكاح[٣].

وقد روى أبو عبيد أن عمر زوج ابنه عاصم وأنفق عليه شهراً من مال الله[٤].

وقد أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز من ينادى فى الناس كل يوم: أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ (أى الذين يريدون الزواج) أين اليتامى حتى أغنى كلاً من هؤلاء[٥].

والأصل فى هذا ما رواه أبو هريرة أن النبى ﷺ جاءه رجل فقال -: (إنى تزوجت امرأة من الأنصار. فقال: على كم تزوجتها؟ قال: على أربع أواق. فقال النبى ﷺ:

---

(١) متفق عليه.

(٢) شرح الخرشى على متن خليل ص ١١٥.

(٣) حاشية الروض المربع جـ ١ ص ٤٠٠ وانظر من مطالب أولى النهى جـ ٢ ص ١٤٧.

(٤) الأموال ص ٢٢٧.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٩ ص ٢٠٠.

على أربع أواق؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل. ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب فيه)[١]. والحديث دليل على أن إعطاء النبى لهم في مثل هذه الحال، كان معروفاً لهم، ولهذا قال له: (ما عندنا ما نعطيك)، ومع هذا حاول علاج حالته بوسيلة أخرى.

كتب العلم من الكفاية:

والإسلام دين يكرم العقل، ويدعو إلى العلم، ويرفع من مكانة العلماء. ويعد العلم مفتاح الإيمان، ودليل العمل، ولا يعتد بإيمان المقلد (مع قدرته على النظر) ولا بعباده الجاهل، ويقول القرآن في صراحة: ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩] ويقول في التفريق بين الجاهل والعالم. وبين الجهل والعلم: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ* وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ**﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٠] ويقول الرسول: (طلب العلم فريضة على كل مسلم). وليس العلم المطلوب محصوراً في علم الدين وحده، بل كل علم نافع يحتاج إليه المسلون في دنياهم. فإن تعلمه فرض كفاية، كما قرر الغزالى والشاطبى وغيرهما من العلماء.

فلا عجب أن رأينا فقهاء الإسلام يقررون في أحكام الزكاة أن يعطى منها المتفرغ للعلم على حين يحرم منها المتفرغ للعبادة. ذلك أن العبادة في الإسلام لا تحتاج لتفرغ كما يحتاج العلم والتخصص فيه. كما أن عبادة المتعبد لنفسه، أما علم المتعلم فله ولسائر الناس[٢].

ولم يكتف الإسلام بذلك بل قال فقهاؤه: يجوز للفقير الأخذ من الزكاة لشراء كتب يحتاجها من كتب العلم التى لابد منها لمصلحة دينه ودنياه[٣].

أى المذهبين أولى بالاتباع؟.

وبعد عرض هذين المذهبين من مذاهب الفقه الإسلامى: مذهب من يرى إعطاء الفقير كفاية العمر كله مرة واحدة، ومذهب من يرى إعطاءه كفاية سنة كاملة فحسب، بصفة دورية، فأى هذين المذهبين أحق أن يتبع، ولكل منهما وجهته ودليله؟ وخاصة إذا أردنا أن تقوم الحكومة بأمر الزكاة؟.

والذى أختاره أن لكل من المذهبين مجاله الذى يعمل به.

---

(١) نيل الأوطار جـ ٦ ص ٣١٦، والأواق: جمع أوقية، وقد تساوى حينذاك ٤٠ درهما، وكانت الشاة خمس دراهم أو عشرة، فهذا القدر كثير على مثل هذا الرجل الذى جاء يطلب المعونة في مهره.

(٢) المجموع جـ ٦ ص ١٩٠.

(٣) انظر الإنصاف في الفقه الحنبلى جـ ٣ ص ١٦٥، ٢١٨.

ذلك أن الفقراء والمساكين نوعان:

نوع يستطيع أن يعمل ويكتسب ويكفى نفسه بنفسه، كالصانع والتاجر والزارع. ولكن ينقصه أدوات الصنعة أو رأس مال التجارة، أو الضيعة وآلات الحرث والسقى.. فالواجب لمثل هذا أن يعطى من الزكاة ما يمكنه من اكتساب كفاية العمر، وعدم الاحتياج إلى الزكاة مرة أخرى، وفى عصرنا هذا يمكن تنفيذ ذلك عن طريق بناء مصانع ومنشآت من مال الزكاة تملك للفقراء القادرين على العمل.

والنوع الآخر عاجز عن الكسب كالزمنى والأعمى والشيخ الهرم والأرملة والطفل ونحوهم، فهؤلاء لا بأس أن يعطى الواحد منهم كفاية السنة، أى يعطى راتباً دورياً يتقاضاه كل عام، بل يصح أن يوزع على أشهر العام إن خيف من المستحق الإسراف، وبعثرة المال فى غير حاجة ماسة، وهذا هو الذى ينبغى اتباعه فى عصرنا، كما هو الشأن فى رواتب الموظفين.

والعجيب أننى بعد أن أخذت هذا التقسيم وجدته منصوصاً عليه فى بعض كتب الحنابلة. فقد قال فى غاية المنتهى وشرحه، بعد أن ذكر قول الإمام أحمد فى صاحب العقار والضيعة التى تغل عشرة آلاف أو أكثر ولا تكفيه: إن له أن يأخذ من الزكاة ما يكفيه - قال: وعليه فيعطى محترف ثمن آلة حرفته وإن كثرت، وتاجر يعطى رأس مال يكفيه. ويعطى غيرهما من فقير ومسكين تمام كفايتهما مع كفاية عائلتهما سنة، لتكرر الزكاة بتكرر الحول فيعطى ما يكفيه إلى مثله[1].

مستوى لائق للمعيشة:

ومن هنا يتبين لنا أن الهدف من الزكاة ليس إعطاء الفقير دريهمات معدودة، وإنما الهدف تحقيق مستوى لائق للمعيشة، لائق به بوصفه إنساناً كرمه الله، واستخلفه فى الأرض، ولائق به بوصفه مسلماً ينتسب إلى دين العدل والإحسان، وينتمى إلى خير أمة أخرجت للناس.

وأدنى ما يتحقق به هذا المستوى الإنسانى أن يتهيأ له ولعائلته طعام وشراب ملائم وكسوة للشتاء وللصيف، ومسكن يليق بحاله، وهذا ما ذكره ابن حزم فى (المحلى) وذكره النووى فى (المجموع) وذكره كثيرون من العلماء.

قال النووى - فى تحديد الكفاية التى بدونها يصبح الإنسان فقيراً - فضلاً عن المسكين الذى هو عنده أحسن حالاً من الفقير - قال: المعتبر.. المطعم والملبس والمسكن وسائر ما لابد له منه، على ما يليق بحاله، بغير إسراف ولا إقتار لنفس الشخص ولمن هو فى نفقته[2].

---

(١) مطالب أولى النهى جـ ٢ ص ١٣٦ .

(٢) المجموع جـ ٦ .

ومما لابد للمرء منه فى عصرنا: أن يتعلم أولاده من أحكام دينهم، وثقافة عصرهم، ما يزيل عنهم ظلمات الجهل، وييسر لهم سبيل الحياة الكريمة، ويعينهم على أداء واجباتهم الدينية والدنيوية.

وقد ذكر الفقهاء فى بحث الحاجات الأصلية للفرد المسلم أن منها: دفع الجهل عنه فإنه موت أدبى، وهلاك معنوى، ومما لابد للمرء منه فى عصرنا، أن يتيسر له سبيل العلاج إذا مرض هو أو أحد أفراد عائلته، ولا يترك للمرض يفترسه ويفتك به، فهذا قتل للنفس، وإلقاء باليد إلى التهلكة، وفى الحديث (يا عباد الله تداووا فإن الذى خلق الداء خلق الدواء)(1) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: 195] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: 29].

وفى الصحيح (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) وإذا ترك المسلم أخاه، أو ترك المجتمع المسلم فردا منه فريسة للمرض دون أن يعالجه، فقد أسلمه وخذله بلا شك، والذى ينبغى الالتفات إليه، أن مستوى المعيشة للشخص لا يمكن تحديده تحديداً جامداً صارماً، لأنه يختلف باختلاف العصور والبيئات وباختلاف ثروة كل أمة ومقدار دخلها القومى.

ورب شئ يكون كمالياً فى عصر أو أمة، يصبح حاجياً أو ضرورياً فى عصر آخر أو أمة أخرى.

معونة دائمة منتظمة:

إذا عرفنا أن هدف الإسلام من الزكاة - بالنسبة للفقير والمسكين الذى لا يحسن حرفة، ولا يقدر على عمل - هو كفالة مستوى معيشى ملائم له ولعائلته، وأنه يعطى تمام كفايته لمدة سنة كاملة، فلنضف إلى ذلك أن الزكاة بالنسبة لهذا الصنف من المستحقين معونة دائمة منتظمة، حتى يزول الفقر بالغنى، ويزول العجز بالقدرة، أو تزول البطالة بالكسب وهكذا.

ولنتأمل فى هذه القصة الواقعية التى حكاها لنا أبو عبيد بسنده:

(بينما عمر نصف النهار قائل فى ظل شجرة وإذا أعرابية فتوسمت الناس فجاءته فقالت: إنى امرأة مسكينة ولى بنون وإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان بعث محمد بن مسلمة ساعياً - تعنى جابياً وموزعاً للصدقة - فلم يعطنا فلعلك - يرحمك الله - أن تشفع لنا إليه. قال: فصاح بـ (يرفأ) - خادمه - أن ادع لى محمد ابن مسلمة فقالت: إنه أنجح لحاجتى أن تقوم معى إليه.

فقال: إنه سيفعل إن شاء الله.

---

(1) صحيح البخارى.

فجاءه (يرفأ) : فقال : أجب . . فجاء فقال : – السلام عليكم يا أمير المؤمنين : فاستحيت المرأة . فقال عمر – والله ما آلوا أن أختار خياركم . كيف أنت قائل إذا سألك الله – عز وجل – عن هذه؟ فدمعت عينا محمد ثم قال عمر : – إن الله بعث إلينا نبيه – ﷺ – فصدقناه واتبعناه ، فعمل بما أمره الله به ، فجعل الصدقة لأهلها من المساكين ، حتى قبضه الله على ذلك . ثم استخلف الله أبا بكر فعمل بسنته حتى قبضه الله ، ثم استخلفني فلم آل أن اختار خياركم أن بعثتك فأد إليها صدقة العام وعام أول ، وما أدرى لعلى لا أبعثك . ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقا وزيتا وقال : – خذى هذا حتى تلحقينا بخيبر فإنا نريدها فأتته بخيبر فدعا لها بجملين آخرين وقال : خذى هذا فإن فيه بلاغا حتى يأتيكم محمد بن مسلمة فقد أمرته أن يعطيك حقك للعام وعام أول)(١) .

علام تدل هذه القصة بأحداثها وحوارها ؟ .

إنها تدل على مبادىء ومعان كثيرة وسامية حقا .

تدل على مدى شعور الحاكم المسلم بمسئوليته عن كل فرد يعيش فى ظل حكم الإسلام .

وتدل على مدى شعور الأفراد أنفسهم بحقهم فى عيشة لائقة تهيئها لهم الدولة المسلمة . وتدل على أن الزكاة كانت الدعامة الأولى لبناء التكافل المعيشى فى المجتمع . وتدل على أنها كانت معونة منتظمة مستمرة ، إذا لم تصل لصاحبها ، فإن من حقه أن يتظلم ويشكو .

وتدل على أن السياسة العمرية الراشدة ، هى إعطاء ما يكفى ويغنى ، فقد أعطى المرأة أولاً جملاً محملاً بالدقيق والزيت ، ثم ألحق به جملين آخرين ، وجعل هذا كله عطاء مؤقتا حتى يعطيها محمد بن مسلمة حقها من العامين : الماضى والحاضر .

وتدل بعد ذلك كله على أن عمر رضى الله عنه لم يكن فى ذلك مبتدعاً ، بل كان متبعاً لسنة رسول الله ﷺ ، ولخليفته أبى بكر رضى الله عنه .

سياسة الإسلام فى توزيع مال الزكاة :

للإسلام فى توزيع الزكاة سياسة حكيمة عادلة ، تتفق وأحدث ما ارتقى إليه تطور الأنظمة السياسية والمالية فى عصرنا الذى يخيل لبعض الناس أن كل ما يأتى به من النظم والتشريعات جديد مبتكر . . فقد عرف الناس فى عصور الجاهلية ، وفى عهود الظلام فى أوروبا ، كيف كانت تجبى الضرائب والمكوس من الفلاحين والصناع

---

(١) الأموال ص ٥٩٩ .

والمحترفين والتجار وغيرهم، ممن يكسب رزقه بكد اليمين، وعرق الجبين، وسهر الليل، وتعب النهار لتذهب هذه الأموال الممزوجة بالعرق والدم والدمع - إلى الامبراطور، أو الملك أو الأمير أو السلطان في عاصمته الزاهية. ينفقها في توطيد عرشه ومظاهر أبهته، والإغراق على من حوله من الحواشي، والأنصار والأتباع: فإن فضل فضل فلتوسيع المدينة وتجميلها، واسترضاء أهلها، فإن فضل شيء فلأقرب المدن إلى جنابه العالي، وهو في ذلك كله غافل عن تلك القرى الكادحة المتعبة، والديار العاملة النائية التي منها جبيت هذه المكوس، وأخذت هذه الأموال.

فلما جاء الإسلام أمر المسلمين بإيتاء الزكاة، كما أمر ولي الأمر بأخذ هذه الضريبة تطهيراً وتزكية لأصحاب الأموال. وإنقاذاً للفئات المحتاجة من هوان الفقر وذل الحاجة حتى يسود التكافل والعدل أبناء المجتمع المسلم قاطبة.

وكما جاء الإسلام بذلك، وجه الرسول ﷺ ولاته وسعاته إلى الأقاليم والبلدان لجمع الزكاة، وأمرهم أن يأخذوا الزكاة من أغنياء البلد ثم يردوها على فقرائه.

ولقد مر بنا حديث معاذ بن جبل - المتفق عليه - أن النبي ﷺ أرسله إلى اليمن، وأمره أن يأخذ الزكاة من أغنيائهم ويردها على فقرائهم. وكذلك نفذ معاذ رضي الله عنه وصية النبي ﷺ. ففرق زكاة أهل اليمن في المستحقين من أهل اليمن. بل فرق زكاة كل إقليم في المحتاجين منه خاصة. وكتب بذلك لهم كتاباً كان فيه: من انتقل من مخلاف عشيرته (يعني الذي فيه أرضه وماله) فصدقته وعشره في مخلاف عشيرته[١].

وعن أبي جحيفة قال: قدم علينا مصدق رسول الله ﷺ، فأخذ الصدقة من أغنيائنا فجعلها في فقرائنا فكنت غلاماً يتيماً، فأعطاني منها قلوصاً (ناقة).

وفي الصحيح أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عدة أسئلة منها (بالله الذي أرسلك آلله أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال: نعم) وروى أبو عبيد عن عمر رضي الله عنه إنه قال في وصيته: أوصي الخليفة من بعدي بكذا، وأوصيه بكذا، وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم، فيرده في فقرائهم[٢].

وكذلك كان العمل في حياة عمر، أن يفرق المال حيث جمع، ويعود السعاة إلى المدينة لا يحملون شيئاً غير أحلاسهم التي يتلفعون بها، وعصيهم التي يتوكأون عليها.

---

(١) رواه عنه طاوس بإسناد صحيح، أخرجه سعيد بن منصور وأخرجه نحوه الأثرم، نيل الأوطار جـ ٢ ص ١٦١ .

(٢) الأموال ص ٥٩٥ .

فعن سعيد بن المسيب أن عمر بعث معاذاً ساعياً على بنى كلاب أو على بنى سعد بن ذبيان فقسم فيهم حتى لم يدع شيئاً حتى جاء بحلسه الذى خرج به على رقبته[١].

وقال آخر من أصحاب يعلى بن أمية وممن استعملهم عمر فى الزكاة: كنا نخرج لنأخذ الصدقة فما نرجع إلا بسياطنا[٢].

وعلى هذا النهج الذى اختصه الرسول وخلفاؤه الراشدون سار أئمة العمل من الحكام، وأئمة الفتوى من فقهاء الصحابة والتابعين.

فعن عمران بن حصين رضى الله عنه أنه ولى عاملاً على الصدقة من قبل زياد ابن أبيه، أو بعض الأمراء فى عهد بنى أمية، فلما رجع قال له: أين المال؟. قال: وللمال أرسلتنى؟.. أخذناه من حيث كنا نأخذه على عهد رسول الله ﷺ، ووضعناه حيث كنا نضعه[٣].

قال أبو عبيد: فكل هذه الأحاديث تثبت أن كل قوم أولى بصدقتهم حتى يستغنوا عنها، ونرى استحقاقهم ذلك دون غيرهم، إنما جاءت به السنة لحرمة الجوار، وقرب دارهم من دار الأغنياء[٤].

فإن جهل المصدق، فحمل الصدقة من بلد إلى آخر سواه، وبأهلها فقر إليها ردها الإمام إليهم كما فعل عمر بن عبد العزيز، وكما أفتى به سعيد بن جبير[٥].

إلا أن إبراهيم النخعى، والحسن البصرى، رخصا فى الرجل يؤثر بها قرابته. وقال أبو عبيد: وإنما يجوز هذا للإنسان فى خاصة ماله. فأما صدقات العوام (جمهور الأمة) التى تليها الأئمة – أولو الأمر – فلا.

ومثل قولهما حديث أبى العالية أنه كان يحمل زكاته إلى المدينة. قال أبو عبيد: ولا نراه خص بها إلا أقاربه أو مواليه[٦].

وإذا كان الأصل المتفق عليه، أن الزكاة تفرق فى بلد المال الذى وجبت فيه، فإن من المتفق عليه كذلك أن أهل هذا البلد إذا استغنوا عن الزكاة كلها أو بعضها لانعدام الأصناف المستحقة، أو لقلة عددها، ووفرة مال الزكاة، جاز نقلها إلى غيرهم أو إلى الإمام ليتصرف فيها حسب الحاجة، أو إلى أقرب البلاد إليهم.

ويعجبنى ما قاله الإمام مالك فى هذا: لا يجوز نقل الزكاة إلا أن يقع بأهل بلد حاجة. فنقلها الإمام إليهم على سبيل النظر والاجتهاد[٧].

---

(١) الأموال ص ٥٩٦. (٢) الأموال ص ٥٩٧.

(٣) رواه أبو داوود وابن ماجه، انظر نيل الأوطار جـ ٤ ص ١٦١.

(٤) الأموال ص ٥٩٨. (٥) الأموال ص ٥٩٨.

(٦) الأموال ص ٥٩٥. (٧) المرجع السابق.

وعن سحنون أنه قال: ولو بلغ الإمام، أن فى بعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه، فإن الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها عن من ليس بمحتاج. والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه[1] اهـ.

٦ - وقد يتساءل إنسان بعد هذا، وهل هذه الزكوات تكفى للقيام بكل ما تقدم. أو يقال: هل الزكاة قادرة على حل كل المشاكل الاقتصادية لمجتمع.

والجواب: أننا لم نقل إن الزكاة وحدها هى كل شيء فى الإسلام، بل هى الركن فيه. هذا الركن مع نظام المال فى الإسلام كما ستراه لا شك هو الحل الكامل لكل مشاكل الاقتصاد فى المجتمع الإسلامى.

أما الزكاة فإنها بلا شك تحل كل مشاكل الأفراد المالية. إذا وجدت العقلية العملية التى تعرف كيف تطبق أحكام الإسلام على واقع الحياة، إذ أن واردات الزكاة من الضخامة بحيث لا تقف أمامها مشكلة. مع ملاحظة أن نظام الزكاة عندما يعالج مشكلة إنسان يحلها له جذرياً، بحيث يصبح هذا الإنسان دافع زكاة بعد ذلك، ولتوضيح هذه الملاحظة نذكر هذا المثال:

لعل أهم مشاكل الإنسان المالية تدور حول الزواج والسكن والبطالة والعجز.. فإذا ما أردنا أن نحل هذه المشاكل بواسطة نظام الزكاة فإنه يمكننا أن نفعل ما يلى:

(١) بالنسبة للعاجزين نطبق عليهم أحكام مذهب الشافعية بأن نشترى لكل منهم عقاراً يكفيه وأهله ريعه، فلو أننا فى عام حللنا مشكلة العاجزين من مال الزكاة، فإن العام القادم لن تكون أمامنا مشاكل عجزة كثيرين، فبالاستطاعة أن نفرغ مال الزكاة لحل مشكلة أخرى مثلاً هى مشكلة البطالة.

(٢) بالنسبة لمشكلة البطالة إذا أخذنا برأى الشافعية فى الموضوع فإننا نستطيع بعد عملية إحصاء للعمال العاطلين، ومعرفة إمكانية كل منهم أن نفعل ما يلى:

من يستطيع عملاً معيناً منهم ولكنه ينقصه رأسمال، يعطى له بالقدر الذى يقيم عمله.

والآخرون يدربون على أعمال، ثم يعطى لهم رأسمال يساعدهم على إقامة أعمالهم.

أو تستطيع الدولة بعد دراسة اقتصادية ترى معها حاجتها إلى نوع معين من الصناعة والإنتاج، أن تشترى معامل وتملكها لهؤلاء العمال، مع قيامها بالترتيبات الإدارية والتنظيمية التى تجعل المعمل يسير ضمن إطار سليم، وهذا فى الحقيقة تطبيق لرأى الشافعية فى إعطاء العامل رأسمال يشترى به آلة لعمله الذى يعمل به.

---

(١) المدونة الكبرى جـ ١ ص ٢٤٦.

فإذا ما حلت معنا مشكلة البطالة من مال الزكاة خلال عام أو عامين أو ثلاثة فإن هذه المشكلة لن تصادفنا بعد ذلك بشكل جماعى، فنستطيع بعد ذلك أن نفرغ مال الزكاة مثلاً لحل مشكة السكن والزواج، بأن يعلن أن مال الزكاة كفيل لكل من يعقد الزواج أو يشترى لنفسه داراً بأن يفى عنه دينه إذا قدم الوثائق اللازمة وهكذا.

والمقصود من كلامنا هذا، أننا نستطيع أن نحل مشاكل الأفراد الاقتصادية بواسطة نظام الزكاة بشكل جذرى لا يلاحقنا بعد ذلك، مما يؤكد بعدها أنه يأتى يوم من الأيام لا يبقى إنسان بحاجة إلى مال، كما جرى واقعياً فى التاريخ.

وقد يتساءل متسائل وماذا نفعل بالزكاة إذا اكتفى الناس. والجواب: إننا فى مثل هذه الحالة نتوسع فى كفالة أنواع من الناس. فمثلاً يمكن أن ننفق هذه الزكوات على كل طالب بلغ ويريد أن يتابع دراسته. فهو معتبر فقيراً شرعاً ما دام عمله هو تحصيل علم يخدم به الأمة، وعلى هذا فيمكن أن يجرى على كل طالب راتب حتى ينهى دراسته، فإذا ما أنهاها يعطى المال اللازم لإقامة العمل الذى أهلته له دراسته، ويمكن ومن جملة ما يمكن: أن نفرغ ناساً للدعوة إلى الله من مال الزكاة يجوبون العالم كله دعاة إلى الله فهذا مما يدخل فى قوله تعالى: ﴿ **وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾.

وأخيراً يمكن نقلها إلى مسلمين آخرين فى غير أرضنا يعانون من قلة المال، وقد ذكرنا هذا من أجل توضيح أن بالزكاة حلاً لكل المشاكل بشكل كامل.

٧ – ذكرنا فى البداية أن الزكاة من مهمات الدولة الإسلامية وهى عنوان عليها، والدولة التى لا تأخذ الزكاة وتضعها فى مواضعها ليست إسلامية، فلا يمكن أبداً أن نعطى صفة الدولة المسلمة لدولة لا تقيم الزكاة. كيف وقد قال الله: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١].

ولكن لا يعنى هذا طبعاً أنه فى حالة عدم وجود الدولة المسلمة أن المسلم لا يطالب بالزكاة، إنه فى حالة فقدان الدولة المسلمة، فإن على المسلم المالك لنصاب الزكاة أن يدفع الزكاة لمستحقيها، وحبذا لو كان المسلم الذى يدفع الزكاة ذا بصر نافذ، يعرف الأنفع فى الزكاة فيصرفها فيه، فكثيراً ما تعطل مرافق تخدم الإسلام والمسلمين لعدم وجود المال الذى يمكن أن يؤدى لها من الزكاة، وكثيراً ما تعطى الزكوات لناس حكم الإسلام فيهم أنهم مرتدون لا يجوز أن تعطى لهم الزكاة.

٨ – ولعل بعض الناس بعد كل ما قدمناه، يشكون بأن من واجب الدولة

المسلمة تنظيم قضية الزكاة، ولذلك فقد آثرنا أن نؤكد هذا الموضع بنقل ما كتبه الأستاذ القرضاوى فى هذا:

يقول تحت عنوان (مسئولية الدولة عن شئون الزكاة) : -

الزكاة - كما تبين لنا - حق ثابت مقرر ﴿ **فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ ولكنه ليس حقاً موكولاً للأفراد يؤديه منهم من يرجو الله والدار الآخرة، ويدعه من ضعف يقينه بالآخرة، وقل نصيبه من خشية الله. كلا: إنها ليست إحساناً فردياً وإنما هى تنظيم اجتماعى تشرف عليه الدولة، ويتولاه جهاز إدارى منظم، يقوم على هذه الفريضة الفذة جباية ممن تجب عليهم وصرفا إلى من تجب لهم.

دلالة القرآن على ذلك:

وأبرز دليل على ذلك أن الله تعالى ذكر هؤلاء القائمين على أمر الزكاة جمعاً وتفريقاً، وسماهم العاملين عليها، وجعل لهم سهماً فى أموال الزكاة نفسها، ولم يحوجهم إلى أخذ رواتبهم من باب آخر تأميناً لمعاشهم، وضمانا لحسن قيامهم بعملهم قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٦٠] وليس بعد هذا النص الصريح فى كتاب الله، مجال لترخص مترخص، أو تأول متأول، أو زعم زاعم، وخاصة بعد أن جعلت الآية هذه الأصناف وتحديدها، فريضة من الله، ومن ذا الذى يجرؤ على تعطيل فريضة فرضها الله؟ وقال تعالى فى نفس السورة التى ذكر فيها مصارف الزكاة ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ [التوبة: ١٠٣] وقد ذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف، إلى أن المراد بالصدقة فى هذه الآية الزكاة، والخطاب للنبى ﷺ ولكل من يلى أمر المسلمين من بعد.

دلالة السنة النبوية:

وفى حديث ابن عباس المشهور فى الصحيحين وغيرهما، أمر النبى ﷺ - حين بعث معاذاً إلى اليمن قال له: (أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب). رواه الجماعة عن ابن عباس.

وشاهدنا من هذا الحديث هو قوله عليه السلام فى تلك الصدقة المفروضة: (تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم)، فبين الحديث أن الشأن فيها أن يأخذها آخذ، ويردها راد، لا أن تترك لاختيار من وجدت عليه.

قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: استدل به على أن الإمام هو الذى يتولى قبض الزكاة وصرفها، إما بنفسه، وإما بنائبه. فمن امتنع منهم أخذت منه قهراً[١] ونقلها الشوكانى بنصها فى نيل الأوطار[٢].

وهذا الذى جاءت به السنة القولية. أكدته السنة العملية، والواقع التاريخى الذى جرى عليه العمل فى عهد الرسول ﷺ – والخلفاء الراشدين من بعده.

ولهذا قال العلماء: يجب على الإمام أن يبعث السعاة لأخذ الصدقة، لأن النبى ﷺ والخلفاء من بعده كانوا يبعثون السعاة، ولأن فى الناس من يملك المال، ولا يعرف ما يجب عليه، ومنهم من يبخل فوجب أن يبعث من يأخذ[٣].

أما أرباب الأموال من الشعب، فيجب عليهم أن يساعدوا هؤلاء السعاة على أداء مهمتهم، ويؤدوا إليهم ما وجب عليهم، ولا يكتموهم شيئاً من أموال زكاتهم. هذا ما أمر به رسول الله ﷺ وما أمر به أصحابه.

عن جابر بن عتيك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (سيأتيكم ركب مبغضون فإذا أتوكم فرحبوا بهم، وخلوا بينهم وبين ما يبتغون فإن عدلوا فلأنفسهم، وإن ظلموا فعليها فإن تمام زكاتهم رضاهم وليدعوا لكم). وإنما كانوا مبغضين لأنهم يطلبون المال والإنسان شحيح به فهو شقيق الروح.

وعن أنس رضى الله عنه: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ قال: نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها إلى الله ورسوله ولك أجرها وإثمها على من بدلها.

فتاوى الصحابة:

وعن سهل بن أبى صالح عن أبيه قال: اجتمع عندى نفقة فيها صدقة – يعنى بلغت نصاب الزكاة فسألت سعد بن أبى وقاص وابن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدرى أن أقسمها أو أدفعها إلى السلطان فأمرونى جميعا أن أدفعها إلى السلطان، ما اختلف على منهم أحد – وفى رواية فقلت لهم: هذا السلطان يفعل ما ترون (كان هذا فى عهد بنى أمية) فأدفع إليهم زكاتى؟ فقالوا كلهم: نعم فادفعها. رواه الإمام سعيد بن منصور فى مسنده.

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر جـ٣ ص ٢٣١ فى شرح حديث وصية معاذ من صحيح البخارى – كتاب الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء حيث كانوا.

(٢) نيل الأوطار جـ٤ ص ١٢٤ طبع مصطفى الحلبى – طبعة ثانية.

(٣) المجموع جـ٦ ص ١٦٨ .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: ادفعوا صدقاتكم إلى من ولاه الله أمركم فمن بر فلنفسه ومن أثم فعليها[١]. رواه البيهقى بإسناد صحيح أو حسن.

وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لمولى له وهو على أمواله بالطائف - كيف تصنع فى صدقة مالى؟.

قال: منها ما أتصدق به، ومنها ما أدفع إلى السلطان.

قال: وفيم أنت من ذلك؟ (أنكر عليه أن يفرقها بنفسه).

فقال: إنهم يشترون بها الأرض ويتزوجون بها النساء.

فقال: ادفعها إليهم فإن رسول الله ﷺ - أمرنا أن ندفعها إليهم - رواه البيهقى فى السنن الكبرى[٢].

هذه الأحاديث الصريحة عن رسول الله - ﷺ - وهذه الفتاوى الحاسمة عن صحابته الكرام، تجعلنا ندرك بل نوقن، أن الأصل فى شريعة الإسلام أن تتولى الحكومة المسلمة أمر الزكاة، فتجبيها من أربابها، وتصرفها على مستحقيها، وأن على الأمة أن تعاون أولياء الأمر فى ذلك، إقراراً للنظام، وإرساءً لدعائم الإسلام وتقوية لبيت مال المسلمين.

من أسرار هذا التشريع:

وربما قال قائل: إن الشأن فى الأديان أن توقظ الضمائر، وتحيى القلوب، وتضع أمام أنظار الناس مثلاً أعلى، ثم تحاول أن تقودهم بزمام الشوق إلى مثوبة الله، أو تسوقهم بسوط الخشية من عقابه، تاركة لأصحاب السلطان أن يحددوا، وينظموا، ويطالبوا، ويعاقبوا، فهذا من شأن السلطة السياسية وليس من مهمة التوجيه الدينى.

والجواب إن هذا قد يصح فى أديان أخرى، ولكن لا يصح أبداً فى الإسلام، فإنه عقيدة ونظام، وخلق وقانون، وقرآن وسلطان.

ليس الإنسان مشطوراً فى الإسلام شطرين: شطراً منه للدين، وشطراً آخر للدنيا، وليست الحياة مقسومة قسمين: بعضها لقيصر وبعضها لله، وإنما الحياة كلها، والإنسان كله، والكون كله لله الواحد القهار. جاء الإسلام رسالة شاملة هادية، فجعلت من هدفها تحرير الفرد وتكريمه، وترفيه المجتمع وإسعاده، وتوجيه الشعوب والحكومات إلى الحق والخير، ودعوة البشرية كلها إلى الله، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله.

وفى هذا الإطار جاء نظام الزكاة، فلم تجعل من شئون الفرد، بل من وظيفة الحكومة

---

(١) نسبه فى المنتقى إلى أحمد - المرجع السابق.

(٢) وهذه الأحاديث ذكرها الإمام النووى فى المجموع جـ ٦ ص ١٦٢ - ١٦٤.

الإسلامية، فوكل الإسلام جبايتها وتوزيعها على مستحقيها إلى الدولة، لا إلى ضمائر الأفراد وحدها، وذلك لجملة أسباب لا يحسن بشريعة الإسلام أن تهملها:

أولا: إن كثيراً من الأفراد قد تموت ضمائرهم، أو يصيبها السقم والهزال، بسبب حب الدنيا، أو حب الذات، فلا ضمان للفقير إذا ترك حقه لمثل هؤلاء.

ثانيا: إن فى أخذ الفقير حقه من الحكومة، لا من الشخص الغنى، حفظاً لكرامته، وصيانة لماء وجهه أن يراق بالسؤال، ورعاية لمشاعره أن يجرحها المن والأذى.

ثالثا: إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى، فقد ينتبه أكثر من غنى لإعطاء فقير واحد على حين يغفل عن آخر فلا يفطن له أحد، وربما كان أشد فقراً.

رابعا: إن صرف الزكاة ليس مقصوراً على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل. فمن الجهات التى تصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يقدرها الأفراد، وإنما يقدرها أولو الأمر وأهل الشورى فى الجماعة المسلمة مثل: إعطاء المؤلفة قلوبهم، وإعداد العدة والعدد للجهاد فى سبيل الله، وتجهيز الدعاة لتبليغ رسالة الإسلام فى العالمين...

بيت مال الزكاة:

ومن هنا نعلم أن الأساس فى النظام الإسلامى أن يكون للزكاة ميزانية خاصة، وحصيلة قائمة بذاتها، ينفق منها على مصادرها المحدودة، وهى مصارف إنسانية وإسلامية خاصة، ولا تضم إلى ميزانية الدولة العامة الكبيرة، التى تتسع لمشروعات مختلفة، وتصرف فى مصارف شتى.

ولقد أشارت آية مصارف الزكاة من سورة التوبة إلى هذا المبدأ، حين قررت أن العاملين عليها يأخذون مرتباتهم منها. فمعنى هذا أن يكون لها ميزانية مستقلة، وينفق على إدارتها منها، وذلك ما فهمه المسلمون من أقدم العصور، فقد جعلوا للزكاة بيت مال قائماً بذاته، إذ قسموا بيوت المال فى الدولة الإسلامية إلى أربعة أقسام:

أولها: بيت المال الخاص بالزكاة، وفيه تكون حصيلتها ونظام العمل على جمعها، وتوزيعها على مصارفها حسب شدة الحاجة.

الثانى: بيت المال الخاص بحصيلة الجزية والخراج (والجزية) مال يؤخذ من غير المسلمين الذين يقيمون بين المسلمين، على أن يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وهو يؤخذ منهم فى مقابل ما يؤخذ من المسلمين فى الزكاة وغيرها من الصدقات الأخرى، كصدقة الفطر، وكفارات الذنوب، والتقصير فى العبادات، وفى مقابل حمايتهم، والدفاع عنهم، دون أن يكلفوا المشاركة فى الخدمة العسكرية، (والخراج) ضريبة سنوية تفرض على رقبة الأرض حسب طاقتها، كالذى فرضه عمر على سواد العراق وغيره.

الثالث: بيت المال الخاص بالغنائم والركاز (عند من يقول أنه ليس من الزكاة ولا يصرف فى مصارفها).

الرابع: بيت المال الخاص بالضوائع وهى الأموال التى لا يعرف لها مالك، ومنها الأموال التى لا وارث لها[1]. أ هـ.

٩ – ومن العجيب أن بعض الناس كفروا بالإسلام، ولم يعودوا مسلمين، أو استخفوا به، لدرجة أنهم بدلاً من أن يحاربوا من لا يقيمه، يدافعون عن تصرفاته الباطلة، ولو بتهديم الإسلام.

أمثال هؤلاء يقولون بعد سماعهم أمثال ما تقدم، وهل تستطيع الدولة أن تجبى الزكاة، هم يسألون هذا السؤال فى عصرنا الذى تقوم به الدول بفرض ضرائب الدخل، والضريبة التصاعدية وغيرها وغيرها، ولا تعجزها جبايتها، ينسون هذا كله، ليقرروا بكل غباء، أن الدولة لا تستطيع جباية الزكاة جباية ممكنة، لذلك كان لابد أن نقرر بعض القضايا:

(١) باستطاعة الدولة أن تخصص شهراً فى السنة لجباية زكاة النقود والعروض والسوائم.

أما السوائم فما أسهل رؤيتها ومعرفتها وجبى زكاتها.

وأما عروض التجارة فهى موجودة فى المصانع والحوانيت فما أسهل تخمينها وجبى زكواتها.

وأما النقود فباستطاعة الدولة أن تلجأ إلى نظام بسيط يجعل كل إنسان مضطراً داخل الدولة لدفع الزكاة.

هذا النظام هو:

إن كل إنسان عنده نقد، عليه أن يقدمه لمصارف خاصة، ليدفع زكاته وتختم له هذه المصارف على أوراقه ختما معينا، يتبدل كل عام، وأى ورقة مالية بعد شهر جباية مال الزكاة لا تكون موقعة تفقد نصف قيمتها الشرائية أخذ من الحديث (ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمد منها شىء).

وطبعا ينظم الأمر بحيث تراعى قضية الأموال الموجودة خارج حدود الدولة، ويوضع لذلك نظام، وتؤخذ الاحتياطات، حتى لا يشترى الناس بأوراقهم المالية ذهبا يخزنونه.

وهذا كله سهل، إذ تقدم وسائل الدولة فى تنفيذ مخططاتها جعل مثل هذه الأمور سهلة الحل.

---

(١) انظر المبسوط جـ٣ ص ١٨، والبدائع جـ٣ ص ٩٨، ٩٩.

(٢) أما بالنسبة لزكوات الزروع والثمار والمعدن فهذه أمرها ظاهر، وطرق جبايتها سهلة ومختلفة، وما نظن أن الأمر يحتاج إلى نقاش.

تبقى نقطة نحب أن نشير إليها:

إن الطريقة التى افترضناها كطريقة لجباية زكوات النقود، ليست هى الطريقة الوحيدة الممكنة، بل هناك طرق كثيرة يمكن أن تلجأ لها الدولة، غير أن هذه الطريقة قد تفيد بشكل آخر وهو تحريك السوق التجارية خلال فترة الجباية السنوية. لأن كثيرين من الناس يشترون بما يملكون من أوراق مالية حاجيات تلزمهم لسنة قادمة، وكثير ين يرغبون بالتخلص من أوراقهم المالية بشكل من الأشكال، وهذا كله يفيد الحياة الاقتصادية.

١٠ – وأخيرا يقول الأستاذ القرضاوى:

وقد جعل القرآن الزكاة – مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة – عنوان الدخول فى دين الإسلام واستحقاق أخوة المسلمين والانتماء إلى المجتمع الإسلامى. قال تعالى فى شأن المشركين المحاربين: ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٥] وقال سبحانه: ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** ﴾ [التوبة: ١١].

فلا يتحقق لكافر الدخول فى جماعة المسلمين، وتثبت له أخوتهم الدينية التى تجعله فرداً منهم: له ما لهم، وعليه ما عليهم، وتربطه بهم رباطاً لا تنفصم عراه، إلا بالتوبة عن الشرك وتوابعه، وإقامة الصلاة التى هى الرابطة الدينية الاجتماعية بين المسلمين، وإيتاء الزكاة التى هى الرابطة المالية الاجتماعية بينهم.

ومنهج القرآن الكريم، والسنة المطهرة أن يقرنا الصلاة بالزكاة دائما، دلالة على قوة الاتصال بينهما وأن إسلام المرء لا يتم إلا بهما. فالصلاة عمود الإسلام، من أقامه فقد أقام الدين ومن هدمه فقد هدم الدين، والزكاة قنطرة الإسلام، من عبر عليها نجا، ومن تجاوزها هلك، قال عبد الله بن مسعود: (أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له)[1].

قال جابر بن زيد: (افترضت الصلاة والزكاة جميعا. لم يفرق بينهما. وقرأ: ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** ﴾ [التوبة: ١١]. وأبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال: رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعنى بذلك قوله: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة).

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٤ ص ١٥٣ – طبع دار المعارف.

لقد جعل القرآن إيتاء الزكاة من أوصاف المؤمنين والمحسنين الأبرار المتقين. وجعل منعها من خصائص المشركين والمنافقين. فهى محك الإيمان. وبرهان الإخلاص كما جاء فى الصحيح (الصدقة برهان) وهى فيصل التفرقة بين الإسلام والكفر، وبين الإيمان والنفاق. وبين التقوى والفجور.

فبغير إيتاء الزكاة لا ينتظم المرء فى عقد المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح. وضمن لهم ميراث الفردوس. وجعل لهم الهدى والبشرى. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٤]. وقال سبحانه: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [النمل: ٢ - ٣].

- وبدون الزكاة لا يدخل فى زمرة المحسنين: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٣].

- وبدون الزكاة لا يكون من الأبرار الصادقين المتقين.

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وبدون الزكاة لا يفارق المشركين الذين وصفهم القرآن بقوله: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

وبغير الزكاة لا يتميز المنافقون الذين وصفهم الله بأنهم ﴿ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أى عن الإنفاق وبأنهم ﴿ لا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤].

وبغير الزكاة لا تستحق رحمة الله التى أبى أن يكتبها إلا للمؤمنين المتقين المؤتين للزكاة قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال عز وجل: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١].

وبدون الزكاة لا تستحق ولاية الله ولا رسوله ولا المؤمنين قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٥].

وبدون إيتاء الزكاة لا يستحق نصر الله الذى وعد به من نصره:

﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١].

ولقد توعد الإسلام بالعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة كل من منع هذه الزكاة. ففى عقوبة الآخرة يقول الله تعالى مهدداً للكانزين للذهب والفضة الذين لا يؤدون منها حق الله: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٤ – ٣٥].

ويروى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه (يعنى بشدقيه) ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا النبى ﷺ الآية: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفى العقوبة الدنيوية يقول عليه الصلاة والسلام: (ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين)[١] – أى بالقحط والمجاعة – وفى حديث ثان: (ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)[٢]. وفى حديث آخر (ما خالطت الصدقة)[٣] – أو قال الزكاة – مالا إلا أفسدته)[٤] ومعنى هذا أن تترك الزكاة فى المال ولا تخرج منه فتهلكه.

وهذا كله فى العقوبة الكونية القدرية أى التى يتولاها القدر الأعلى.. وهناك عقوبة دنيوية أخرى هى عقوبة شرعية قانونية، وهى التى يتولاها أولو الأمر فى المجتمع

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط، ورواته ثقات.
(٢) رواه ابن ماجه والبزار والبيهقى واللفظ له.
(٣) رواه البزار والبيهقى. (٤) رواه أحمد والنسائى وأبو داوود.

الإسلامى، وفى هذه العقوبة جاء حديثه ﷺ فى الزكاة (من أعطاها مؤتجراً – أى طالب الأجر – فله أجرها ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله – أى نصفه – عزمة من عزمات ربنا لا يحل لآل محمد منها شىء) .

وهذا الحديث الشريف يجيز لولى الأمر مصادرة نصف مال من امتنع عن أداء زكاته وهو نوع من العقوبة المالية التى يتخذها الحاكم عند الحاجة ليؤدب بها الممتنعين والمتهربين، وليس ذلك عقوبة لازمة ولا دائمة، وإنما هو من العقوبات التعزيرية التى تخضع لتقدير أولى الأمر، واجتهاد أهل الحل والعقد فى المجتمع المسلم.

ولم تقف عقوبة مانع الزكاة عند الغرامة المالية فحسب، بل يجوز لولى الأمر أن يستعمل العقوبة الدينية، والحبس وغيرها حسب المصلحة والحاجة . . وأكثر من ذلك أن الإسلام يشرع سل السيوف . وإعلان القتال على الممتنعين المتمردين عن أداء الزكاة، ولهذا قاتل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ومعه الصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة، وقال كلمته المشهورة : (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال . . والله لئن منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه)[1] .

قال ابن حزم : (وحكم مانع الزكاة إنما هو أن تؤخذ منه أحب أم كره، فإن مانع دونها فهو محارب، فإن كذب بها فهو مرتد، فإن غيبها ولم يمانع دونها فهو آت منكراً فوجب تأديبه أو ضربه حتى يحضرها، أو يموت قتيل الله تعالى إلى لعنة الله . كما قال رسول الله ﷺ : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع) وهذا منكر ففرض على من استطاع أن يغيره)[2] وكل هذه النصوص تؤكد لنا درجة الإلزام العالية التى تتمتع بها الزكاة . فليست مجرد واجب عادى، بل هى – كما بينا – إحدى الدعائم الخمس التى قام عليها بنيان الإسلام . . وأصبح معلوماً بالضرورة، أنها أحد أركان الإسلام، وتناقل ذلك الخاص والعام . . ولم تعد فرضيتها فى حاجة إلى إقامة دليل، فقد ثبت ثبوتاً مؤكداً بالآيات القرآنية الصريحة المتكررة، وبالسنة المتواترة، وبإجماع الأمة كلها خلفا عن سلف، وجيلا إثر جيل.

قال ابن قدامة : فمن أنكر وجوبها جهلاً به، وكان ممن يجهل ذلك، إما لحداثة عهده بالإسلام، أو لأنه نشأ ببادية نائية عن الأمصار عرف بوجوبها ولا يحكم بكفره لأنه معذور .

---

(١) رواه الشيخان .   (٢) المحلى لابن حزم جـ ١١ ص ٣١٣ .

وإن كان مسلماً ناشئاً ببلاد الإسلام بين أهل العلم فهو مرتد تجرى عليه أحكام المرتدين ويستتاب ثلاثا فإن تاب وإلا قتل لأن أدلة وجوب الزكاة ظاهرة فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة. فلا تكاد تخفى على أحد ممن هذه حاله فإذا جحدها فلا يكون إلا تكذيبه الكتاب والسنة وكفره بهما(1).

الزكاة حق معلوم:

والزكاة فى النظرة الإسلامية حق أو دين فى أعناق الأغنياء، للفئات الضعيفة والمستحقة، وهى كذلك حق معلوم أى محدد النسبة والمقدار، علمه الذين تجب عليهم الزكاة، وعلمه الذين تصرف لهم الزكاة، والذى قرر هذا الحق وحده هو الله تعالى الذى وصف المتقين المحسنين من عباده بقوله: ﴿ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾ [الذاريات: ١٩] وفى سورة أخرى وصف الأخيار من عباده الذين يستحقون الإكرام فى جناته فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ* لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

ولا غرابة فى تقرير هذا الحق وتحديده، إذا عرفنا حقيقة تملك الإنسان للمال فى النظرية الإسلامية التى عرفت بنظرية (الاستخلاف) والتى يدل عليها قوله تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧] وغيرها من الآيات.

فالإنسان ليس هو المالك الحق للمال، وإنما هو أمين عليه من قبل مالكه الأصلى وهو الله تعالى، مالك المال وواهبه وخالقه ورازقه.. ومن واجب الإنسان أن يذعن لما يأمر به هذا الخالق الرازق.. وما يعنيه من حق فى هذا المال قل أو كثر.

وإذا كانت الزكاة حقاً معلوماً أوجبه الله تعالى للفقراء والمساكين وسائر المستحقين، فمن مقتضى ذلك، ألا تسقط – وقد وجبت ولزمت – بمرور عام أو أكثر دون أدائها وإيتائها أهلها.

وفى هذا يقول أبو محمد بن حزم: من اجتمع فى ماله زكاتان فصاعداً وهو حى تؤدى لكل سنة على عدد ما وجبت عليه فى كل عام، وسواء كان ذلك لهروبه بماله، أو لتأخر الساعى (محصل الزكاة من قبل الدولة) أو لجهله، أو لغير ذلك، وسواء فى ذلك العين (النقود) والحرث والماشية، وسواء أتت الزكاة على جميع ماله أو لم تأت، وسواء رجع ماله بعد أخذ الزكاة منه إلى ما لا زكاة فيه، أو لم يرجع، ولا يأخذ الغرماء شيئا حتى تستوفى الزكاة(2).

---

(1) المغنى جـ ٢ ص ٥٧٣ – طبعة ثالثة. المنار. (2) المحلى جـ ٦ ص ٨٧.

فإذا كانت الضريبة تسقط بالتقادم، ومرور سنوات تقل أو تكثر – حسب تحديد القانون – فإن الزكاة تظل ديناً فى عنق المسلم لا تبرأ ذمته، ولا يصح إسلامه، ولا يصدق إيمانه إلا بأدائها. وإن تكاثرت الأعوام وهى – كما يرى ابن حزم وغيره – دين ممتاز، مقدم على سائر الديون لما اجتمع لها من صفات، وما توافر لها من خصائص، فهى حق الله، وحق الفقير، وحق المجتمع جميعا.

وكذلك لا تسقط الزكاة بموت رب المال، وتخرج من تركته، وإن لم يوص بها. هذا قول عطاء والحسن والزهرى وقتادة ومالك والشافعى وأحمد وإسحاق وأبى ثور وابن المنذر[1]. وهذا القول هو الصحيح. لقول الله تعالى فى المواريث: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء: ١١] فعم سبحانه وتعالى الديون كلها والزكاة (كما قال ابن حزم) دين قائم لله تعالى، وللمساكين والفقراء والغارمين، وسائر من فرضها تعالى لهم فى نص القرآن. واستدل ابن حزم على تقديم دين الزكاة على ديون الناس، بما رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال: (جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إن أمى ماتت وعليها صوم شهر أفاقضيه عنها؟ فقال: لو كان على أمك دين – أكنت قاضيه عنها؟ قال نعم. قال: فدين الله أحق أن يقضى).

من هنا نتبين أن موت المكلف بالزكاة لا يسقطها عنه، ولو كان موته عن طريق القتال والشهادة فى سبيل الله لما روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين).

ومن ذلك دين الزكاة إذا أخرها حتى استشهد وهى فى ذمته كما ذكر ابن تيمية وغيره من العلماء[٣]. وبهذا كله يتأكد لنا إن الزكاة فى الإسلام حق أصيل ثابت لا يسقطه تقادم ولا موت، وأنها تؤخذ من التركة وتقدم – فى أرجح الأقوال – على كل حق وكل دين سواها. فالإسلام جعل الزكاة حقاً من حقوق الله على عباده، وحقا من حقوق الإنسان على أخيه الإنسان.

فهى حق الله بارىء الإنسان ورازقه، وخالق المال وواهبه، ومسخر ما فى الكون لخدمة الإنسان بأمره سبحانه.

وهى حق الفقير المحتاج على أخيه الغنى، بمقتضى الإخوة المشتركة بينهما.

٢ – مختارات من نصوص الزكاة:

روى الستة عن أبى هريرة قال: لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب. قال عمر كيف نقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ:

---

(١) المغنى: لابن قدامة جـ ٢ ص ٦٧٣ .   (٢) منار السبيل جـ ١ ص ٢٨٥ .

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) . فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

عن الستة إلا الترمذى وهو بلفظ مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليها أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى حقها إلا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرت عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل يا رسول الله فالخيل؟ قال: ثلاثة: هى لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر، أما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنه انقطع طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له، فهى لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ثم لم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى لذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياً ونواء لأهل الإسلام، فهى على ذلك وزر. وسئل ﷺ عن الحمر فقال: ما أنزل على فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

(فى الأوسط عن بريدة عن رسول الله ﷺ : (ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين) . روى أبو داوود عن الحارث الأعور عن على عن رسول الله ﷺ . إذا كانت

لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيء فى الذهب حتى يكون لك عشرون ديناراً، فإذا كانت لك عشرون ديناراً. وحال عليها الحول، ففيها نصف دينار، فما زاد فبحساب ذلك. قال فلا أدرى أعلى يقول بحساب ذلك أم رسول الله ﷺ. وليس فى مال زكاة حتى يحول عليه الحول).

(روى البخارى والنسائى وأبو داوود عن أنس: أن أبا بكر كتب له حين وجهه إلى البحرين هذا الكتاب، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: (محمد) سطر، و(رسول) سطر، و(الله) سطر. بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التى فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، والتى أمر الله بها رسوله. فمن سألها من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سأل فوقها فلا يعط: فى أربع وعشرين من الإبل، فما دونها من الغنم فى كل خمس شاة، فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض، فإن لم تكن بنت مخاض فابن لبون، فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون، فإذا بلغت ستاً وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل، فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة، فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل، فإذا زادت على عشرين ومائة ففى كل أربعين ابنة لبون، وفى كل خمسين حقة، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليست فيها صدقة، إلا أن يشاء ربها، فإذا بلغت خمسا ففيها شاة. وصدقة الغنم فى سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة. شاة. فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه، فإذا زادت على ثلاثمائة ففى كل مائة شاة. فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها، فلا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة.

وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية. ولا تخرج فى الصدقة هرمة ولا ذات عوار، ولا تيس إلا أن يشاء المصدق. وفى الرقة ربع العشر، فإن لم يكن إلا تسعين ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها.. ومن بلغت عنده من الأبل صدقة الجذعة، وليست عنده، وعنده حقة، فإنها تقبل منه الحقة، ويجعل معها شاتين أو عشرين درهماً، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده، وعنده الجذعة، فإنها تقبل منه ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده إلا ابنة لبون، فإنها تقبل منه ابنة لبون، ويعطى شاتين أو عشرين درهماً

ومن بلغت صدقته بنت لبون وعنده حقة، فإنها تقبل منه الحقة ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين، ومن بلغت صدقته بنت لبون وليست عنده، وعنده بنت مخاض فإنها تقبل منه بنت مخاض ويعطى معها عشرين درهماً أو شاتين، ومن بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده، وعنده بنت لبون فإنها تقبل منه، ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين، فإن لم تكن عنده بنت مخاض على وجهها وعنده ابن لبون فإنه يقبل منه وليس معه شيء) .

(روى الستة واللفظ لأبى داوود عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : ليس فى الخيل والرقيق زكاة إلا أن زكاة الفطر فى الرقيق) .

(روى مالك عن سفيان بن عبد الله : أن عمر بعثه مصدقاً، فكان يعد على الناس بالسخل، فقالوا تعد بالسخل ولا تأخذ منها شيئاً، فلما قدم على عمر ذكر ذلك له فقال تعد عليهم السخلة يحملها الراعى ولا تأخذها، ولا تأخذ الأكولة والربى ولا الماخض ولا فحل الغنم، وتأخذ الجذعة والثنية وذلك عدل بين غذاء المال وخياره) .

(فى الأوسط عن أنس قال : فرض محمد ﷺ فى أموال المسلمين فى كل أربعين درهما درهم وفى أموال أهل الذمة من كل عشرين درهما درهم وفى أموال من لا زمة لهم فى كل عشرة دراهم درهم) .

(روى البخارى وأصحاب السنن عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : فيما سقت السماء والعيون أو كان عشرياً العشر وما سقى بالنضح نصف العشر) .

(روى مالك فى الموطأ عن الصائب بن يزيد . إن عثمان كان يقول هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤد دينه حتى تحصل أموالكم فتودون منه الزكاة) .

(عن الستة إلا أبى داوود عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار وفى الركاز الخمس) .

(روى أبو داوود عن سمرة بن جندب : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نخرج من الذى نعده للبيع) .

(عن الستة بلفظ البخارى عن ابن عمر قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين وأن تؤدى قبل خروج الناس إلى المصلى) .

(وفى رواية : وكان ابن عمر يؤديها قبل ذلك بيوم أو بيومين) .

(عن الستة عن أبى سعيد قال : كنا نخرج زكاة الفطرة ورسول الله ﷺ فينا عن

كل صغير وكبير حر ومملوك من ثلاثة أصناف صاعاً من تمر: صاعاً من أقط، صاعاً من شعير، فلم نزل نخرجه حتى كان معاوية فرأى مدين من بر يعدل صاعاً من تمر. فأما أنا فلا أزال أخرجه كما كنت أخرجه ما عشت).

(عن ابن عباس قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين من أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات).

(روى الشيخان وأبو داوود عن ابن حميد الساعدى قال: استعمل النبى ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى إلىَّ فقام النبى ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنى استعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت لى أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه، حتى تأتيه هديته إن كان صادقا والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر). ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه يقول: اللهم هل بلغت).

(روى مسلم وأبو داوود عن عدى بن عميرة الكندى عن الرسول ﷺ قال: من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتى به يوم القيامة. فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله اقبل عنى عملك قال: ومالك؟ قال سمعتك تقول كذا وكذا فقال وأنا أقوله ألا من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره فما أوتى منه أخذه وما نهى عنه انتهى).

(روى أبو داوود عن إبراهيم بن عطاء مولى عمران بن حصين عن أبيه: قال: إن زيادا أو بعض الأمراء بعث عمران بن حصين على الصدقة فأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء فلما رجع قال لعمران أين المال؟ قال وللمال أرسلتنى؟ أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها حيث كنا نضعها على عهده).

(روى أبو داوود عن بشير بن يسار قال: زعم أن رجلاً من الأنصار يقال له سهل بن أبى حثمة أن النبى ﷺ وداه مئة من إبل الصدقة يعنى دية الأنصارى الذى قتل بخيبر).

(روى مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل فى فلاة من الأرض فسمع صوتاً فى سحابة إسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة فإذا شرجة من تلك الشراج وقد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم

فى حديقة يحول الماء بمسحاته فقال يا عبد الله ما اسمك؟ قال فلان للاسم الذى سمع فى السحابة فقال يا عبد الله لم سألتنى عن اسمى قال سمعت صوتاً فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان باسمك فما تصنع فيها؟ قال أما إذا قلت هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فاتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثه وأرد فيه ثلثه).

(روى النسائى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: سبق درهم مئة ألف درهم قالوا وكيف؟ قال كان لرجل درهمان فتصدق بأجودهما وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مئة ألف درهم فتصدق بها).

(روى الشيخان وأبو داوود والنسائى عن أبى سعيد قال: أن أعرابياً قال يا رسول الله أخبرنى عن الهجرة قال ويحك إن شأن الهجرة شديد فهل لك من إبل؟ قال نعم. قال: فهل تؤدى صدقتها؟ قال: نعم. قال: فاعمل من وراء البحار فإن الله لن يترك من عملك شيئا).

(فى الكبير عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ: صنائع المعروف تقى مصارع السوء وصدقة السر تطفىء غضب الرب وصلة الرحم تزيد فى العمر).

* * *

الركن الرابع : الصوم

(أ) نظرات عامة فى الصوم :

١ – إن ضبط النفس لا غنى للبشرية عنه، فما من إنسان فيه عقل إلا ويدرك إنه لو أطلق كل إنسان لأهوائه العنان فى كل مجال، واستطاع أن يحققها فإن البشرية تنتهى فى لحظات، أو فى أيام، أو أن الحياة تصبح لا تطاق، والواقع الحالى للبشر يرينا كم يعانى البشر من تعاسة نتيجة لعدم تقيدهم بالحدود التى ينبغى أن يتقيدوا بها، والتى هى الحدود التى حدها الله للبشر فى علاقاتهم بعضهم ببعض، إذ لله وحده حق الإلزام، لأنه وحده صاحب الأمر والنهى والحكم، لأنه وحده الأعلم والأحكم والأرحم.

ودين الله الذى هو الإسلام، إنما هو الصيغة الوحيدة للإنسان التى ينبغى أن تصاغ عليها نفسه، وأن تضبط بها شهواته وأهواؤه، وبها حياة الناس، وهى الطريق المستقيم المنير الوحيد الذى لهم، وعليهم أن يسلكوه :

﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢].

٢ – والرمز العملى لضبط النفس فى دين الله، هو الصوم المفروض، ولذلك كان من أركان هذا الدين، ولذلك كان طريقاً من طرق الوصول إلى حقيقة التقوى التى هى التعبير العملى عن أخذ المسلم نفسه بالإسلام : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٣] ولعلنا نفهم من الآية سر وجود فكرة الصوم على اختلاف تطبيقاتها العملية عند كل الأديان الكبيرة فى العالم، والنصرانية، واليهودية، والبرهمية[١]. وإنما كان هذا كأثر من آثار فرض الله الصوم على كل أمة أرسل لها رسول، وكل أمة كما رأينا قد أرسل لها رسول . فوجود مثل هذه الفكرة، إنما هو من بقايا دين كان الله أنزله، ثم حرف ونسخ وعلى كل فالآية بينت أن الصيام فريضة الله فى كل دين أنزله الله، ودين الله فى صيغته الأخيرة الخاتمة والناسخة، قد فوض فيه الصوم بصيغة نهائية، وخاتمة وناسخة، ولذلك كان صوماً ما شئت أن ترى من واقعيته، إلا رأيت، ومن سهولته إلا رأيت، ومن نفعه إلا رأيت، ومن آثاره الطيبة على الحياة البشرية، اجتماعياً، وسلوكياً، وعملياً إلا رأيت، ومظهر هذه المعانى ما تراه عنه فى الفقرات التالية :

---

(١) راجع كتاب « الأركان الأربعة » للأستاذ أبى الحسن الندوى .

٣ – الصيام المفروض علينا استقلالاً، هو صيام شهر رمضان، الشهر القمرى، وفى ذلك معان كثيرة:

ففى شهر رمضان نزل القرآن ففيه كان بدء الدعوة الإسلامية، وبدء نزول كتابها فيه، فصيام هذا الشهر تخليد لذكرى ينبغى أن تبقى حية فى نفس المسلم شعورياً وعملياً.

واختيار الشهر القمرى الذى له علامته الكونية الكبيرة، القمر بدءاً وانتهاء، يحمل فى طياته عوامل الوضوح والثبات، والاستعصاء على التحريف أو التزوير أو التدجيل، فلا تستطيع سلطة و لا جماعة أن تحرف المسلمين عنه.

يقول عليه السلام: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته – أى الهلال – فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين) رواه البخارى.

واختيار الشهر القمرى فيه كذلك حكم كثيرة منها:

إن السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بحوالى عشرة أيام، فعلى هذا يتقدم شهر رمضان كل عام عنه فى السنة الماضية عشرة أيام بالنسبة للسنة الشمسية، وعلى هذا ففى خلال ستة وثلاثين عاماً لا يبقى يوم من أيام السنة إلا وقد صامه المسلم.

اليوم القصير فى السنة واليوم الطويل، اليوم الحار، واليوم البارد، وبذلك يتساوى المسلمون فى كل أقطارهم فى مقدار الصيام، وشدته، كل دورة من هذه الدورات، ولولا هذا لكان نصيب أهل المناطق الحارة أشد من نصيب أهل المناطق الباردة فى شهر شمسى واحد ثابت، وناس يصومون يوماً طويلاً أبد الدهر وناس يصومون يوماً قصيراً، أما بهذا فكل منهم خلال دورة واحدة قد أصابه من شدة الصوم ما أصاب غيره.. إن للفواكه مواسم معينة، ولأنواع من الطعام مواسم معينة، كذلك والصيام على الشهر القمرى يعود الإنسان على الامتناع خلال أوقات معينة عن كل نوع خلال الدورة الكاملة التى تحدثنا عنها، وفى المقابل لا يحرمه أبد الدهر من التمتع بنوع واحد خلال وقت الصوم.

وفى تعيين شهر رمضان بالذات، شهراً للصوم، دون ترك التعيين للإنسان ليختار شهرا معينا لنفسه من السنة، فيما عدا ما ذكرنا حكمه الأخرى من إشعار المسلمين بوحدتهم، ومن تعويد النظام والانضباط والاستسلام لله، ومن فتح الباب لأعمال موحدة من الخير ينال كل من المسلمين فيها نصيبه، ولذلك نرى أن أكثر الاجتهاد ذهب إلى أنه متى ثبتت رؤية الهلال فى قطر من أقطار المسلمين فقد وجب على كل المسلمين الصوم، ولم يخالف فى ذلك إلا الشافعية، وفى ذلك توكيد لدخول المسلمين جميعا فى يوم واحد مدرسة واحدة هى مدرسة رمضان بما فيها من معان عظيمة.

٤ – والصيام المفروض هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع نية الصيام لله تعالى. فلا صيام إذا لم تكن نية الصائم أنه يفعل هذا لوجه الله، إيماناً به وبرسوله وبكتابه وشريعته، وإخلاصاً له فى العمل وقد ورد فى الحديث (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).

والمفطرات هى كل ما يدخل الجوف من طعام وشراب وغيرهما والجماع أو الإنزال بسحاق أو استمناء.

فالشىء الأساسى إذن فى الصيام هو الامتناع عن شهوتى البطن والفرج، وهما أعتى شهوات الإنسان، فمن استطاع أن يحفظ نفسه خلال فترة الصوم عن هاتين الشهوتين، كان على غيرهما أقدر، وكان على تنظيمهما بعد ذلك، بحيث لا يخرج فيها عن حدود الحلال مستطيعاً، وإذا استطاع ذلك كان على طريق الجنة سائراً وفى الحديث:

(من يضمن لى ما بين لحييه وما بين فخذيه أضمن له الجنة).

ولا ينضبط اللسان بشىء كانضباطه بالصيام، وهذه نقطة عامة: إن الشبع الدائم للإنسان يجعل أعضاءه فى كامل طاقتها، ويجعل نفسه كذلك، ومن هنا فإن لسانه ينطلق وقد لا يستطيع ضبطه، واللسان أداة التعبير عن النفس، فمهما كان فى النفس من شرود عن طريق الله، ظهر فى اللسان، وفى اليد، وفى الرجل، وفى السلوك، وفى العمل، فحبس النفس عن شهوة الطعام، إضعاف بالتالى لها عن الانطلاق فى أى طريق، وترويض لها على الانضباط على الطريق الصحيح.

وهذا هو الجانب السلبى فى الموضوع، والذى مظهره كف النفس عما ينبغى قال عليه السلام:

(إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب وإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امروء صائم) وقال: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) وما لم يحقق الإنسان من صيامه هذا الجانب فهو كما قال عليه السلام: (رب صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر).

إن تطهير النفس شىء أساسى فى الصوم، وقال عليه السلام إذ أقبل رمضان (مرحباً بالمطهر): (أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحط الخطايا ويستجيب الدعاء.. فأروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشقى من حرم فيه رحمة الله).

وأما الجانب الإيجابى:

فإن الصوم ترويض للنفس على الصبر، وقوة الإرادة، والطاعة لله، ووقت الصوم يمتد من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان،

ولكن كما قلنا ما زاد اليوم نتيجة لفصل كذا ومكان كذا سينقص فى صيام آخر، نتيجة لكون الصيام مرتبطاً بالأشهر القمرية.

ويلاحظ فى توقيت الصوم أنه علق على علامتين سماويتين يسهل تمييزهما، هما الفجر، وغروب الشمس وفى ذلك ضبط للوقت، يستطيعه أى إنسان فى أكثر مناطق العالم.. ولابد هنا من الإشارة إلى حالتين:

الأولى: حالة القطبين إذ يمتد بهما النهار والليل إلى ستة أشهر، فلو كان الإنسان فى مثل هذه المناطق فكيف يكون صومه؟

الثانية: أن هناك مناطق بعد القطبين، قد يكون الليل فيها ٢٣ ساعة، والنهار ساعة أو العكس، النهار ٢٣ ساعة والليل ساعة واحدة، ويتناقص هذا ويزيد على حسب البعد من القطبين، أو القرب منهما، فكيف يصوم الإنسان فى مثل هذه البلاد؟ والجواب هو:

قال الشافعية: فى البلاد التى ليس فيها فجر وعشاء متميزين عن بعضهما، يكون صوم الناس فيها صيام أقرب البلاد إليهم التى فيها عشاء متميز، وفجر متميز، وكذلك البلاد التى يدوم نهارها أو ليلها أكثر من أربع وعشرين ساعة، وكذلك يكون حكم الصلاة، حيث تقدر أوقاتها تقديراً فى البلاد التى يدوم ليلها أو نهارها فترة طويلة على الأساس السابق.

وكذلك البلاد التى غروب الشمس فيها هو بداية فجرها، فإن وقت العشاء فيها كوقته فى أقرب بلد إليهم يغيب فيها شفق العشاء، ثم تكون فترة يطلع شفق الفجر فيها.

والمهم فى هذا كله أنه لا توجد حالة من الحالات يسقط فيها فرض الصوم عن الإنسان فى البلاد الواضح فجرها وغروبها، من الفجر إلى الغروب، وفى البلاد الأخرى كما رأينا.

يقول عز وجل: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** ﴾ [البقرة: ١٨٧].

والمقصود بالفجر هنا، الفجر الثانى، وهو المستطير يقول عليه السلام: (لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير فى الأفق).

ويلاحظ فى الصوم بهذا الشكل، أنه أعطى الإنسان وقتا يعوض فيه عن كل ما فقده فى صيامه من حاجة الجسد، طعاماً أو شراباً، أو جنساً، فتمحض الصيام نفعاً خالصاً للإنسان، جسمياً ونفسياً، وإن لم يكن هذا هو الهدف، بل الهدف هو طاعة الله وتقواه.. ولكن أشرنا إلى هذا لأن الذين لا يعلمون، يدعون أن الصيام يضر جسم

الإنسان، وللرد عليهم ننقل هذه التجارب العملية التى أجراها اختصاصيون حول هذه القضية، مع التعليق عليها كما نشرتها مجلة (المسلمون) تحت عنوان: (أثر الصيام على صحة الإنسان) بقلم الأستاذين بهيئة تدريس كلية الطب، داكار باكستان وراجعه وعلق عليه الدكتور أ. أ.

مقدمة: يصوم المسلمون فى شتى بقاع الأرض الشهر القمرى التاسع – رمضان – كل عام، حيث يحرم عليهم الأكل والشرب، من طلوع الفجر، أو ما يقرب من ساعة ونصف قبل شروق الشمس، حتى مغيبها، وما بين الإفطار والإمساك يسمح لهم بالأكل والشرب فى حدود طاقاتهم.

والصيام فرض على الأصحاء من الرجال عند سن الخامسة عشرة عاماً، أو (البلوغ) والصحيحات من النساء عند سن اثنى عشر عاماً (أو البلوغ)، أما المرضى والمسافرون، فغير ملزمين بالصيام[1] كما تنص الآية: ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] ونسبة لتغير الدورة القمرية، فإن هنالك تحولاً فى عدة شهر رمضان من عام لآخر، حيث يسبق الشهر القمرى الشهر الميلادى بأحد عشر يوماً سنوياً.

ويتراوح الصيام اليومى بين اثنتى عشرة ساعة وتسع عشرة ساعة حسب اختلاف المواقع الجغرافية، والمواسم المختلفة التى يحل فيها رمضان. ولهذا يأكل الصائم وجبة أو وجبتين أثناء الليل حسبما تقتضى حاجته، طول مدة الليل حتى مطلع الفجر.

ولقد طال الجدل العلمى حول مدى التأثير الفسيولوجى للصيام على جسم الإنسان، فبينما يرى البعض أنه ضار بالجسم، يرى البعض الآخر أنه غير ضار، ما دام التغير الوحيد هو فى اختلاف موعد تناول وجبات الطعام. وهذا فى حد ذاته لا يؤثر فى مجموع الطاقة الحرارية التى يحتاجها الجسم طوال الأربع وعشرين ساعة.

وفى الواقع إن الجسم قد يستهلك كميات أكثر من البروتينات والنشويات والسكريات فى رمضان، ومعنى هذا أن يأخذ الجسم كميات أكثر من الطاقة الحرارية.

بحث: ولقد أجرى بحث طبى على ثلاثة عشر متطوع، من بينهم أنثى حامل، فى شهرها السادس، لمعرفة مدى تأثير صوم رمضان على جسم الإنسان، وللمقارنة أجريت تجربة مماثلة على رجل مفطر عمره سبعة وعشرون عاماً، فى نفس الوقت وفى ظروف مشابهة. وقد تضمنت التجربة تأثير الصوم فى الوزن، والحرارة والنبض، وضغط الدم، ونسبة التمثيل الأساسى لخلايا الجسم، كما أجرى بحث كيماوى على الدم والبول.

---

(١) وإنما يجب عليهم قضاؤه .

طريقة التجربة: كان من بين الثلاثة عشر متطوعاً: ثلاث نساء أعمارهن على التوالى: ١٧ و ٢٧ و ٤٠ عاما. وتتراوح أعمار الرجال بين ٢٢ و ٦٩ بمتوسط عمر ٣٣ عاما. وجميع المتطوعين ينتمون للطبقة المتوسطة، التى يتراوح مقدار ما يحصل عليه كل منهم من الطاقة الحرارية بين ٥٠٠ر٢ و ٠٠٠ر٣ وحدة حرارية. وجميعهم بحالة صحية جيدة، وكلهم خال من الأمراض العضوية والطفيليات.

وقد أجريت كل الأبحاث والتحاليل اللازمة على جميع المتطوعين قبل بدء رمضان بمدة أسبوع، لإمكان المقارنة بين حالتهم قبل الصوم وبعده. وقد أخذت العينات التى أجرى عليها البحث قبل تناول إفطار الصباح.. أما فى رمضان فقد أخذت العينات بعد أن يتناول كل منهم جرعة من الماء عند موعد الإفطار.. وقد أعيد إجراء هذه التجارب فى اليوم الأول، والعاشر، والأخير من رمضان وبعد شهر من انتهاء رمضان.

وقد أجريت الأبحاث على أدق الطرق العلمية الحديثة.

وإليك أيها القارىء الكريم النتائج التى حصلنا عليها من هذه الأبحاث:

النتائج: ١ - الوزن: كانت تأثيرات الصيام على وزن الجسم هى كما يرى من الجدول الموضح (جدول رقم ١).

(جدول رقم ١) لبيان أثر الصوم على وزن الجسم (بالأرطال):

	قبل الصوم	رمضان			بعد الصوم
	أ	ب	ج	د	هـ
المقارنة «المتطوع الفاطر»	١٤٢	١٤٠	١٤٠	١٤٢	١٤٢
متوسط وزن الصائمين	١٢٢	١٢٢	١٢١	١١٩	١٢١
وزن المرأة الحامل	١٠٦	١٠٦	١٠٨	١١٠	١١٧

حيث:

(أ) تعنى قبل رمضان.

(ب، ج، د) تعنى اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان.

(هـ) بعد مضى شهر من رمضان.

ويلاحظ من التجربة أنه لم يكن هنالك تغير ملحوظ فى وزن الرجل المفطر، وباستثناء اثنين من المتطوعين، فقد كان هنالك نقص بسيط فى وزن الصائمين أقصاه سبعة أرطال خلال رمضان.. وفى حالة واحدة ظل الوزن كما كان قبل الصيام، كما زاد وزن المرأة الحامل حوالى أربعة أرطال خلال فترة الصيام، ونصف العدد تقريباً عاد وزنهم كما كان قبل الصيام فى التجربة التى أجريت بعد شهر من انتهاء الصوم.

٢ - الجهاز الدموى: لم يكن هنالك تأثير ظاهر على نسبة النبض، وحرارة

الجسم من جراء الصيام.. وبقيت حالة الهيموجلوبين عادية، ويعتقد أن السبب هو أن وقت الصوم غير كاف لإحداث أى تركيز يذكر فى الهيموجلوبين. كما لم يكن هنالك تغيير ملحوظ فى ضغط الدم عند المتطوعين بصفة عامة، وإن كان هنالك هبوط بسيط فى الدم فى بعض الحالات فى الفترة الأولى من رمضان.

(**ملاحظة**: التمثيل الحرارى هو مقدار ما يأخذه الجسم من الأكسوجين وما يطرده من ثانى أكسيد الكربون ليتمكن من استمرار نشاطه.. ووحدته السعر الحرارى.. والجسم يأخذ عادة ما يعادل حوالى ٣٠٠ سعر حرارى).

٣ – نسبة التمثيل الحرارى للخلايا: لم يكن هنالك تغيير ملحوظ فى نسبة التمثيل الأساسى فى خلال الجسم، طوال فترة الصوم، غير أنه فى حالة المرأة الحامل، كان مرتفعا، ويتراوح بين + ١ر١٥ سعراً (أكثر من المعتاد) فى أيام الصيام الأولى و+ ١٥ر٢٦ سعرا بعد مضى شهر من رمضان وهذه النتيجة فى حدود طاقة الجسم إذا ما أعطى اعتبار لكونها حامل.

٤ – نسبة السكر فى الدم: (جدول رقم ٢) نرى فى الجدول الموضح مدى التغيير فى مستويات كمية السكر فى الدم.

(جدول رقم ٢) يوضح أثر رمضان على سكر الدم: (مليجرام – ١٠٠ مم فى الدم):

	أ	ب	ج	د	هـ
– المقارن (المفطر)	٩٨	٨٧	٩٠	٨٨	٩٣
– متوسط مستوى سكر الدم بالنسبة المئوية عند الصائمين	٨٤	٨٠	٨٠	٧٤	٨٦
– المرأة الحامل[١]	٨٨	٨٤	٧٢	٦٨	٨١

المفتاح:

(أ) قبل رمضان.

(ب، ج، د) اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان.

(هـ) بعد مضى شهر من رمضان.

ومن هذا الجدول يلاحظ أنه كان هناك هبوط واضح فى مستويات كمية السكر فى الدم.. وفى عشر حالات فردية للمتطوعين كانت النسبة أقل من ٧٠ مليجرام فى المائة ويعتبر هذا الحد هو الحد الأدنى للحالة الطبيعية عند الإنسان.. ولم يحدث إطلاقا أن ارتفعت نسبة سكر الدم أكثر من ١٠٤ مليجرام فى المائة فى كل حالات البحث.

---

(١) يلاحظ أنه أبيح للمرأة الحامل أن تفطر فى رمضان إذا خشيت على نفسها أو ابنها من الصيام بإخبار طبيب مسلم عدل.

٥ – درجة استهلاك السكر. كما أجريت تجربة على أربعة من المتطوعين – من بينهم امرأة – قبل رمضان مرة، ثم فى اليوم الأخير منه مرة أخرى، لمعرفة مدى التغير فى سرعة استهلاك السكر فى الدم عند الصيام.

الجلوكوز: ويلاحظ من الجدول المرفق.. أنه لم يكن هناك تغيير ملحوظ عن النسبة المعتادة عند المفطر كما رأينا فى الجدول رقم ١. ولوحظ أن محتويات الدم وعناصره بقيت فى الحدود العادية طوال مدة الصوم، كما لوحظ أن وظيفة الكبد ظلت طبيعية.

٦ – توازن السوائل: يلاحظ أن كمية ما يأخذه المتطوع من السوائل كان كافياً للجسم عند معظمهم، وكان عند البعض أعلى نسبياً، بحيث يصل ٢٫٤ لتراً فى الأربع وعشرين ساعة.. ونسبة التبول كانت كما هو موضح فى الجدول رقم ٣. وفى غضون الأربع وعشرين ساعة كانت بصفة عامة فى الحدود العادية، وإن سجلت نسبة أقل من وقت لآخر بالنسبة للصائمين كما سجلت نفس النتيجة للرجل المفطر، وهى بلا شك نتيجة لتقلبات الطقس، وتبخر الماء عن طريق مسام الجسم، وليست نتيجة للصيام، والدليل على ذلك أن نفس النتيجة وجدت عند الصائم والمفطر سواء بسواء.

(جدول رقم ٣) يوضح أثر رمضان على كمية التبول:

(لترات فى اليوم)

	أ	ب	ج	د	هـ
المقارنة (الرجل المفطر)	١٠٢	١٠١	١٠٥	١٠٤	١٠٠
متوسط تبول الصائمين	١٠٤	١٠٧	١٠٢	١٠٢	١٠٤
المرأة الحامل	١٠٤	١٠٣	١٠٣	١٠٨	١٠٤

حيث

(أ) قبل رمضان.

(ب، ج، د) اليوم الأول والعاشر والأخير من رمضان.

(هـ) بعد مضى شهر من رمضان.

ويستنتج من ذلك أنه لم يكن هنالك أى تغير فى وظيفة الكليتين أثناء الصوم، إذ لوحظ أن مركبات البول كانت طبيعية فى كل التجارب.

والنتيجة الواضحة لذلك: أثبتت الأبحاث السالفة بأن الصيام ليس ذا أثر يذكر على تدهور صحة الإنسان – لو صح أن هنالك تدهور على الإطلاق وفى معظم الحالات يلاحظ نقصان بسيط فى الوزن، وانخفاض ضئيل فى مستوى كمية الدم عند الغروب نتيجة لطول اليوم، ولكنه فى حدود طاقة الجسم وفى المستوى الفسيولوجى

الطبيعي.. ويجدر أن نذكر هنا أن الملاحظات الآنفة الذكر، انطبقت على أناس أصحاء.. وليس معنى هذا أنها يمكن أن تنطبق على المرضى، ذوى العاهات.. ومن المصلحة أن يعرف مدى تأثير رمضان على المصابين بالسكر أو أى أمراض مستعصية.

وقد لوحظ أن هنالك فتوراً عاماً عند الصائمين خصوصا فى الساعات الأخيرة من اليوم، وربما كان ذلك نتيجة لانخفاض مستويات كمية السكر فى الدم، ولكن سرعان ما يدب النشاط بعد تناول الإفطار.

تعليق الدكتور أ. أ.

أثبت هذا البحث الحديث الذى أجراه عالمان مسلمان على أسس علمية سليمة. أن الصوم ليس له تأثير ضار بالجسم. بل بالعكس أود أن أضيف إلى ذلك أن للصوم فوائد، أثبتها العلم أيضا. أهمها:

١ – راحة الجهاز الهضمى ساعات كل يوم، والمعروف عن الجهاز الهضمى كغيره من الأحشاء الداخلية، أنه آلة تعمل بلا انقطاع، من ساعة أن يرضع الطفل لأول مرة من ثدى أمه، إلى أن يموت. ومن الأمور الطبيعية فى علاج كثير من المرضى الصوم عن الطعام لساعات معلومة، وخاصة منها التحضير للعمليات الكبيرة. إذ يشترط فيها خلو المعدة من الطعام خلواً تاماً قبل إعطاء البنج. بل وفى العمليات المستعجلة ربما اضطر الجراح إلى تفريغ المعدة قبل إعطاء البنج.

(المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء). (من كلام طبيب العرب الحارس ابن كلدة).

٢– المعروف علمياً أن القليل من الطعام خير من الكثير، بل أن الأكل فى مواعيد ثابتة لا يتخللها أكلات خفيفة، مع أخذ الوجبات بحيث تكفى الطاقة اللازمة للجسم. هو أفضل بكثير من ملء المعدة وحشوها بما يفيد وما لا يفيد، وهذه فى ذاتها إحدى فضائل الصوم الجسمانية حيث يكتفى الصائم بالقليل من الطعام عند إفطاره، وهذه هى سنة المصطفى ﷺ عند صومه.. ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ** ﴾ [الحشر: ٧].

٣ – ثابت علمياً أيضاً أن الإكثار من الطعام له مضار ظاهرة، بل وأمراض محددة لها علاقة مباشرة بالإكثار من الطعام، كبعض الأمراض الروماتيزمية، وأمراض القلب، وضغط الدم، والبول السكرى. فلا غرو أن كان فى الصوم راحة للجسم لمدة محددة كل عام هى (جزء من اثنى عشر) من عمر المريض.

ويلاحظ انتشار مثل هذه الأمراض بنسبة أعلى منها فى البلاد حيث الصوم مفروض ومؤدى.

وبعد . . فهذه تجربة جريئة لكى يرى من لم يكن قد رأى أثر الصوم فى المسلم، وفى تعوده على الشدة، وكبح جماح شهوة البطن، وهى أقوى الشهوات، وفى تكوين الفرد الصلب، الذى لا يلين. وأن ثلاثة عشر قرناً أو تزيد لشاهدة على تكوين هذا المثل الدائم، لأثر الصوم، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد). أ هـ .

وعلى كل حال فليس إثبات مثل هذه الأبحاث إلا من أجل الذين فى قلوبهم مرض أما المؤمنون فإنهم يطيعون الله، بصرف النظر عن أى موضوع آخر، إذ تأكد لهم أن رضى الله فى شيء ثابت الورود عنه، أو عن رسوله عليه الصلاة والسلام.

٤ – ورمضان فى الحقيقة مدرسة، إذا أحسن المنتسبون إليها أدبهم معها خرجوا وهم بشر جدد غير الذين كانوا فى الأمس. . فرمضان هو المدرسة التى يجدد فيها المسلم ما وهى من عرى الإسلام عنده. . ويأخذ ما قصر فى أخذه من قبل، ودورة يقبل بها المسلمون على عالم جديد، ويخلفون وراءهم عالماً آخر. . عالماً ملؤه همة جديدة، وروح جديدة، وانتعاش جديد، وأمل يرتفعون به عن أن تكون الدنيا أكبر همتهم، ويتذكرون فيه أن الآخرة ورضوان الله فيها هى الهدف الكبير الذى لا ينبغى أن يغيب عن قلب المسلم.

والقصة هى كما يلى: فى كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقا) رأينا أهمية التقوى وماهيتها وأنها الخلق الذى علق الله عليه فلاح المسلم فى دنياه وآخرته:

﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** ﴾ [الطور: ١٧].

﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [التوبة: ٤].

وأن هذه التقوى حتى يستجمعها المسلم فى قلبه فتكون له خلقاً. لابد أن يسلك لها طريقها وأهم الطرق المؤدية إلى التقوى الصيام، والقيام، والأذكار، والدعاء، وقراءة القرآن، والإنفاق فى سبيل الله، والإعتكاف، والصبر، والإستغفار.

فقد قال الله عن الصيام: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقال عن القرآن: ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال عليه السلام فى الحديث القدسى: (وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه) (وأنا معه إذا ذكرنى).

وشهر رمضان هو الشهر الذى يسير به المسلم فى كل طرق التقوى بشكل عفوى، إذا أقام به ما سنه لنا رسول الله ﷺ فما من طريق يحقق التقوى فى قلب المسلم، إلا ويؤديه المسلم الحقيقى فى رمضان بشكل عفوى، فما ينتهى شهر الصوم، إلا وقد امتلأ قلب المسلم نوراً وإيماناً وتقوى، فمن سنن الصيام السحور وهو الأكلة ما بين منتصف الليل إلى الفجر. يقول عليه السلام فيه: (تسحروا فإن فى السحور بركة) فالسحور معناه أن يكون المسلم قبل الفجر مستيقظا، ومن سنن هذه الحالة الوضوء، والصلاة، والإستغفار، والتوجه بعد الفجر إلى المسجد لصلاة الفجر، ومن سنة صلاة الفجر، أن يذكر المسلم الله فيها وبعدها، بأذكار مأثورة واردة، ومن سنن الصيام الدعاء عند الفطور فللصائم دعوة مستجابة.

(اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، وعليك توكلت، وبك آمنت، ذهب الضمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر.. يا واسع الفضل اغفر لى، الحمد لله الذى أعاننى فصمت، وزرقنى فأفطرت) ومن سنن الصيام صلاة التراويح التى يصليها المسلمون جماعة بعد العشاء، فيجمعون بها ذكراً وقراءة قرآن، وركوع وسجود وتبتل.

ومن سنن رمضان اعتكاف العشر الأواخر من رمضان، والاعتكاف قطع لقلب المسلم عن كل ما له علاقة فى الدنيا، وتفرغ لكل أعمال الآخرة.

ومن سنن رمضان أن يكثر المسلم من قراءة القرآن، وأقل ذلك أن يقرأ القرآن مرة، ومن سنن هذه القراءة المدارسة المشتركة، فقد كان جبريل يساجل رسول الله القرآن فى رمضان.

ومن سنن رمضان الإنفاق فى سبيل الله، فقد كان رسول الله ﷺ فى رمضان أجود من الريح المرسلة، ومن سنن رمضان وواجباته صدقة الفطر التى يخرجها المسلم عن نفسه وأولاده الصغار، غير البالغين، قال عليه السلام فى خطبة قبل يوم الفطر بيوم أو يومين (أدوا صاعاً من بر أو قمح أو صاعاً من تمر أو شعير عن كل حر أو عبد صغير أو كبير).

وقال ابن عباس: (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين) وقال عليه السلام: (أما غنيكم فيزكيه الله وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى).

والمسلمون فى رمضان تعمر مساجدهم بحلقات العلم والوعظ والتذكير، فيتعلم من كان جاهلاً، ويتعظ من كان سادراً، ويتذكر من كان غافلاً، وفى رمضان تتلقى أجيال المسلمين كلها الإسلام.

تتلقاه فى اجتماع الأسرة قبل الفجر، وتتلقاه فى تحلقها قبل المغرب بانتظار

الفطر، وتتلقاه بالتطبيق العملى إذ يعتبر كثير من فقهاء المسلمين أن من واجب الأولياء أمر ابن السابعة بالصوم، وضربه عليه إذا بلغ عشراً، والرسول عليه السلام فى العشر الآخير من رمضان، كان يوقظ أهله فى الليل ليأخذوا حظهم من عبادة الله.

ورمضان بعد هذا كله شهر الصبر الذى يعيشه المسلمون فى أقطار الدنيا، فيأخذون منه الدرس الكبير، ولعل الصبر هو نصف ما يحتاجه الإنسان فى هذه الدنيا كلها.

إن رمضان مدرسة تظهر آثار تربيتها فى كل شىء، فى الفرد، وفى الأسرة، وفى الأمة سياسياً، وعسكرياً، واقتصادياً، ونفسياً، وتربوياً، لتحيى الإسلام فى كل شىء.

(ب) مختارات من نصوص الصوم :

(روى البخارى وأبو داوود عن أبى هريرة : أن الرسول ﷺ كان يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذى قبض فيه أعتكف عشرين).

(روى الستة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكون معتكفاً فى المسجد فيناولنى رأسه من خلل الحجرة فأغسل رأسه وأنا حائض).

(وفى رواية : وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان).

(وفى رواية أخرى : كان يمر بالمريض وهو معتكف فيمر ولا يعرج يسأل عنه).

(وفى أخرى قالت : والسنة للمعتكف أن لا يعود مريضاً، ولا يشهد جنازة، ولا يمس امرأة، ولا يباشرها، ولا يخرج لحاجة إلا لما لابد منه، ولا إعتكاف إلا بصوم ولا إعتكاف إلا فى مسجد جامع).

(روى الشيخان وأبو داوود عن صفية قالت : كان النبى ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى، وكان مسكنها فى دار أسامة، فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا فقال على رسلكما إنها صفية بنت حيى، فقالا : سبحان الله يا رسول الله، فقال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا – أو قال شيئا).

(روى القزوينى عن ابن عمر قال : إن النبى ﷺ كان إذا اعتكف طرح له فراشه. أو يوضع له سريره وراء إسطوانة التوبة).

(روى القزوينى عن أنس قال : دخل رمضان فقال النبى ﷺ : إن هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا محروم).

(روى مالك عن ابن شهاب : أن أبا هريرة وابن عباس اختلفا فى قضاء رمضان، فقال أحدهما : يفرق بينه وقال الآخر لا يفرق).

(روى الستة عن عائشة قالت : كان يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضى إلا فى شعبان، وذلك لمكان رسول الله ﷺ) .

(روى مالك والترمذى وأبو داوود عن عائشة قالت : كنت أنا وحفصة صائمتين، فأهدى لنا طعام فأكلنا منه، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصة : وبدرتنى – وكانت بنت أبيها – : يا رسول الله إنى أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدى لنا طعام فأفطرنا عليه فقال : أقضيا مكانه يوما) .

(روى السنة إلا النسائى عن أبى هريرة قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل فقال يا رسول الله : هلكت . قال : مالك؟ قال وقعت على امرأتى وأنا صائم فقال : هل تجد رقبة تعتقها؟ قال لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال لا . قال : هل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال لا . قال : اجلس فأتى النبى ﷺ بعرق فيه تمر قال : أين السائل؟ قال أنا . قال : خذ هذا فتصدق به . فقال : أعلى أفقر منى يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها – يريد الحرتين – أهل بيت أفقر من أهل بيتى . . فضحك النبى ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال : أطعمه أهلك) .

(وفى رواية زاد : وصم يوما واستغفر الله) .

(روى مالك أنه بلغه : أن أنساً كبر حتى كان لا يقدر على الصوم فكان يفتدى) .

(لأحمد والأوسط عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أدركه رمضان وعليه من رمضان شىء لم يقضه فإنه لم يقبل منه ومن صام تطوعاً وعليه من رمضان شىء لم يقضه فإنه لا يقبل منه حتى يصومه) .

(روى الستة عن عائشة قالت : إن رسول الله ﷺ : كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه بعده) .

(روى الترمذى عن أبى سعيد قال : بلغ النبى ﷺ عام الفتح مر الظهران، فآذنا بلقاء العدو، فأمرنا بالفطر فأفطرنا أجمعين) .

(روى الشيخان والنسائى عن أنس قال : كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً فى يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء فمنا من يتقى الشمس بيده فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر) .

(روى الشيخان وأبو داوود والنسائى عن جابر قال : كان النبى ﷺ فى سفر فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه، وقد ظلل عليه فقال : ماله؟ فقالوا : رجل صائم . فقال : ليس البر أن تصوموا فى السفر) .

(روى أصحاب السنن عن رسول الله ﷺ : إن الله وضع شطر الصلاة عن المسافر، وأرخص له فى الإفطار، وأرخص فيه للمرضع والحبلى إذا خافتا على ولديهما) .
(روى مسلم وأصحاب السنن عن أبى سعيد قال : كنا نسافر مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر، فلا يجد المفطر على الصائم ولا الصائم على المفطر وكانوا يرون أنه من وجد قوة فصام فحسن . ومن وجد ضعفا فأفطر فحسن) .
(روى الستة عن عائشة قالت : إن حمزة بن عمرو الأسلمى قال للنبى ﷺ : أأصوم فى السفر؟ وكان كثير الصيام فقال : إن شئت فصم وإن شئت فأفطر) .
(روى أبو داوود والنسائى عن حمزة بن عمرو الأسلمى : أنه قال للنبى ﷺ أنه صاحب ظهر يسافر عليه، وربما صادفه رمضان قوياً شاتياً . . الصوم أهون عليه من أن يؤخره فيكون دينا وقال : أفاصوم يا رسول الله أعظم لأجرى أو أفطر؟ فقال : أى ذلك شئت يا حمزة) .
(ر وى البخارى وأبو داوود والترمذى واللفظ له عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : (من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه) .
(روى مالك عن سليمان بن يسار قال : إن رسول الله ﷺ نهى عن صوم أيام التشريق) .
(روى مسلم عن نبيشة الهذلى عن رسول الله ﷺ قال : أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله) .
(روى أصحاب السنن عن صله بن زفر : كنا عند عمار فى اليوم الذى يشك من شعبان أو رمضان، فأتينا بشاة مصلية فتنحى بعض القوم فقال : إنى صائم فقال عمار : من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم ﷺ) .
(روى مالك : سمعت أهل العلم ينهون عن صوم اليوم الأول الذى يشك فيه أنه من شعبان أو من رمضان إذا نوى به الفرض ويرون أن على من صامه لغير رؤية ثم جاء الثبت إنه رمضان القضاء، ولا يرون فى صيامه تطوعا بأسا) .
(روى أبو داوود والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : إذا انتصف شعبان فلا تصوموا) .
(روى أبو داوود والترمذى والشيخان والنسائى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجلاً يصوم صوماً فليصمه) .
(روى الشيخان عن ميمونة : أن الناس شكوا فى صيام رسول الله ﷺ يوم عرفة فأرسلت إليه بحلاب وهو واقف فشرب والناس ينظرون) .
(روى الشيخان وأبو داوود والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : لا تخصوا

ليلة الجمعة بقيام من بين الليالى، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم).

(للكبير عن كريب قال: أرسلني ناس إلى أم سلمة أسألها أى الأيام كان رسول الله ﷺ أكثر لها صوماً؟ فقالت السبت والأحد ويقول هما يوما عيد للمشركين فأحب أن أخالفهم).

(روى القزويني عن محمد بن عباد بن جعفر قال: سألت جابراً وأنا أطوف بالبيت أنهى النبى ﷺ عن صيام يوم الجمعة؟ قال نعم ورب هذا البيت).

(روى القزويني عن ابن مسعود قال: قلما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة).

(روى النسائى والترمذى عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ كان يتحرى صيام يومى الإثنين والخميس).

(روى الترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: تعرض الأعمال على الله يوم الإثنين ويوم الخميس فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم).

(روى الترمذى وأبو داوود عن مسلم القرشى قال: سألت – أو سئل – رسول الله ﷺ عن صيام الدهر فقال: إن لأهلك عليك حقا فصم رمضان، والذى يليه، وكل أربعاء وخميس، فإذا أنت قد صمت الدهر كله).

(روى الترمذى وأبو داوود عن معاذة العدوية: سألت عائشة: أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت نعم قلت من أى الشهر كان يصوم؟ قالت لم يكن يبالى من أى الشهر كان يصوم).

(روى مسلم وأبو داوود والنسائى عن أبى قتادة قال: سئل رسول الله عن صوم الإثنين قال: ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل على فيه).

(لأصحاب السنن عن ابن مسعود: كان رسول الله ﷺ يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام).

(روى الشيخان والترمذى وأبو داوود عن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ نهى عن صيام يومين: يوم الفطر ويوم النحر).

(لأبى داوود والترمذى وللشيخين مطولاً عن أبى عبيد مولى ابن أزهر: شهدت عمر فى يوم نحر بدأ بالصلاة قبل الخطبة ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن صوم هذين اليومين، أما يوم الفطر ففطركم من صومكم وعيد المسلمين وأما يوم الأضحى فكلوا من لحوم نسككم).

(روى مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد المفروضة الصلاة فى جوف الليل).

(روى الترمذى عن أبى قتادة عن رسول الله ﷺ : صيام يوم عاشوراء إنى احتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله) .

(روى مسلم وأبو داوود عن ابن عباس قال : حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا يا رسول الله : إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى فقال : فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمت اليوم التاسع فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله ﷺ) .

(ولرزين : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود) .

(روى الشيخان والنسائى عن ابن عباس : ما صام رسول الله ﷺ شهرا كاملا قط غير رمضان ، وكان يصوم حتى يقول القائل لا والله ما يفطر ، ويفطر حتى يقول القائل لا والله ما يصوم) .

(وللسنة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، وما رأيته استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان وما رأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شعبان) .

(روى النسائى عن أسامة قال : قلت يا رسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان . قال : ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم) .

(روى أبو داوود : كان رسول الله ﷺ يفطر قبل أن يصلى على رطبات فإن لم يجد فتميرات فإن لم تكن حسا حسوات من ماء .

(روى أبو داوود عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال : ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله) .

(روى البخارى وأبو داوود والترمذى عن عامر بن ربيعة قال : رأيت رسول الله ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أعد ولا أحصى) .

(روى البخارى فى ترجمة عن ابن عمر قال : يستاك الصائم أول النهار وآخره) .

(روى الشيخان وأبو داوود ومالك عن ابن عمر قال : إن النبى ﷺ نهى عن الوصال قالوا أنك تواصل قال إنى لست كهيئتكم إنى أطعم وأسقى) .

(روى البخارى وأبو داوود عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : قال : لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر قالوا فانك تواصل . . بنحوه) .

(روى مسلم والترمذى وأبو داوود عن أبى أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ قال : من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر) .

(وللدارمى عن ثوبان عن رسول الله ﷺ قال : صيام شهر بعشرة أشهر وستة أيام بعده بشهرين فذلك تمام الستة) .

(روى أبو داوود والنسائى عن هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبى ﷺ قالت : كان النبى ﷺ يصوم تسع ذى الحجة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر أول اثنين من الشهر والخميس) .

(روى الترمذى عن أبى قتادة عن رسول الله ﷺ : صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى بعده والسنة التى قبله) .

(روى الشيخان وأبو داوود والنسائى عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره فإنه يؤذن - أو قال ينادى بليل - ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم وليس الفجر أن يقول هكذا وجمع بعض الرواة كفيه حتى يقول هكذا ومد إصبعيه السبابتين وفى رواية هو المعترض وليس بالمستطيل) .

(روى الشيخان وأبو داوود والترمذى عن عمر عن رسول الله ﷺ قال : إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم) .

(روى الشيخان وأبو داوود عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فى رمضان فلما غابت الشمس قال يا فلان : أنزل فأجدح لنا . قال يا رسول الله إن عليك نهارا قال أنزل فاجدح لنا فنزل فجدح فشرب ﷺ ثم قال بيده : إذا غابت الشمس من هاهنا وجاء الليل من هاهنا فقد أفطر الصائم) .

(روى الشيخان ومالك والترمذى عن سهيل بن سعد عن رسول الله ﷺ : لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر) .

(روى الترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : أحب عبادى إلى أعجلهم فطراً) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن مالك بن عامر أبو عطية : قلت لعائشة رضى الله عنها فينا رجلان من أصحاب النبى ﷺ أحدهما يعجل الإفطار ويؤخر السحور والآخر يؤخر الإفطار ويعجل السحور قالت أيهما الذى يعجل الإفطار ويؤخر السحور؟ قلت : عبد الله بن مسعود : قالت : كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ . وفى رواية : أحدهما يعجل الإفطار ويعجل الصلاة والآخر يؤخر الإفطار ويؤخر الصلاة) .

(روى النسائى عن أبى عبيدة عن رسول الله ﷺ قال : الصوم جنة ما لم يخرقها) .

(عن أبى أمامة قال : قلت يا رسول الله : مرنى بأمر ينفعنى الله به قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له) .

(روى الشيخان وأبو داوود عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وأسقاه) .

(فى الأوسط عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من أكل أو شرب ناسيا فى رمضان فلا قضاء عليه ولا كفارة) .

(فى الأوسط ولأحمد عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: من أدركه رمضان وعليه رمضان آخر لم يقضه لم يقبل منه) .

(روى البخارى وأبى داوود والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) .

(روى الشيخان وأبو داوود والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه) . - وهذا فى النفل والقضاء - .

(روى مسلم وأبو داوود والترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً ليطعم وإن كان صائماً فليصل - قال هشام يريد: فليدع لهم) .

(روى الشيخان والترمذى والنسائى عن أنس عن رسول الله ﷺ: تسحروا فإن فى السحور بركة) .

(روى الشيخان والترمذى والنسائى عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس قلت كم بينهما؟ قال قدر خمسين آية) .

(عن حذيفة عن رسول الله ﷺ قال: لا تقدموا الشهر حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة ثم صوموا حتى تروا الهلال أو تكملوا العدة) .

(روى أبو داوود عن حسين بن الحارث الجدلى عن الحارث بن حاطب قال: عهد إلينا رسول الله ﷺ أن ننسك لرؤيته فإن لم نره وشهد شاهدا عدل نسكنا بشهادتهما وقال: إن فيكم من هو أعلم بالله ورسوله منى وقد شهد هذا من رسول الله ﷺ وأومأ إلى ابن عمر فقال: بذلك أمرنا رسول الله ﷺ) .

(روى مسلم وأصحاب السنن عن عائشة قالت: دخل على النبى ﷺ ذات يوم فقال: هل عندكم من شيء فقلنا لا قال: فإنى إذن صائم، ثم أتانا يوماً آخر فقلنا يا رسول الله أهدى لنا حيس قال أرنيه فقد أصبحت صائماً فأكل) .

(وفى رواية: قلت يا رسول الله دخلت على وأنت صائم ثم أكلت حيساً قال: نعم يا عائشة إنما منزلة من صام فى غير رمضان أو فى غير قضاء رمضان فى التطوع بمنزلة رجل أخرج صدقة من ماله فجاد منها بما شاء فأمضاه وبخل بما بقى فأمسكه) .

(وفى رواية قال: الصائم المتطوع أمين - أو أمير - نفسه فإن شاء صام وإن شاء أفطر) .

(وعن عائشة: قالت: قبلنى رسول الله ﷺ وهو صائم وأنا صائمة) .

(روى أبو داوود عن أبى هريرة قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ من المباشرة للصائم فرخص له، وأتاه آخر فسأله فنهاه، فإذا الذى رخص له شيخ وإذا الذى نهاه شاب)، والمقصود بالمباشرة لمس البشرة بالبشرة لا الجماع .

(روى الستة عن عائشة وأم سلمة : قال أبو بكر بن عبد الرحمن : سمعت أبا هريرة يقص يقول في قصصه : من أدركه الفجر جنباً فلا يصم فذكرت ذلك لأبي فأنكره فانطلق وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة فسألهما عن ذلك فكلتاهما قالت : كان النبي ﷺ يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم، فانطلقنا حتى دخلنا على مروان فذكر ذلك له عبد الرحمن فقال مروان، عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة فرددت عليه ما يقول . فجئنا أبا هريرة فذكر له عبد الرحمن فقال أبو هريرة : أهما قالتاه لك؟ قال نعم . قال : هما أعلم . ثم رد ما كان يقول إلى الفضل ابن عباس فقال سمعت ذلك من الفضل ولم أسمعه من النبي ﷺ فرجع أبو هريرة عما كان يقول) وفي رواية (قالتا : إن كان رسول الله ﷺ ليصبح جنباً من جماع غير احتلام في رمضان ثم يصوم) .

(روى الستة عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك) .

(روى الشيخان عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : في الجنة باب يدعى الريان يدعى له الصائمون فمن كان من الصائمين دخله ومن دخله لم يظمأ أبداً) .

(روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً) .

(وفي الأوسط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : اغزوا تغنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا) .

(روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) .

(روى الشيخان ومالك والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين) .

(روى الترمذي عن أم عمارة بنت كعب الأنصارية عن رسول الله ﷺ قال : الصائم إذا أكلت عنده المفاطير صلت عليه الملائكة) .

(روى مالك والشيخان وأبو داوود عن ابن عمر قال : إن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال ﷺ : أرى رؤياكم تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر . وفي رواية : في العشر الأواخر) .

* * *

الركن الخامس : الحــج

(أ) نظرات عامة فى الحج:

١ – الحج مجموعة رموز صيغت بأعمال.

فهو رمز على استسلام الإنسان لله إذا بلغه أمر الله بواسطة رسوله، إذ ينفذ الأمر بصرف النظر عن المعنى العملى لهذا الأمر. وما الطواف، والوقوف، والسعى، والحلق، والتقصير وغيرها من أعمال الحج، إلا رمز استسلام المسلم لأمر الله دون نقاش.

وهو رمز على ارتباط هذه الأمة بأبيها إبراهيم عليه السلام حيث نحيى شعائره، ونطوف بالبيت الذى بناه.

وهو رمز على وحدة الأمة الإسلامية، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان، فوحدة المسلمين نابعة عن عقيدتهم ودينهم وشريعتهم.

٢ – والحج مظهر عملى لكثير من قواعد الإسلام:

فهو المظهر العملى للإخوة الإسلامية، حيث يحس الإنسان بشكل عملى أنه أخ لكل مسلم فى العالم.

وهو المظهر العملى للمساواة بين الشعوب إذا دخلت فى الإسلام، وهو المظهر العملى لقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات: ١٣] فبه يتم أعظم تعارف بين شعوب العالم.

وهو المظهر العملى لخضوع المسلمين جميعا لسلطة سياسية واحدة.

٣ – والحج مدرسة يرتفع بها المسلم إلى آفاق أرقى وأعلى:

يتعلم بها على بذل الجهد مع الصبر (لكن أفضل الجهاد حج مبرور).

ويتعلم بها أن يعيش فى عبادة دائمة.

ويتعلم بها أن يكون لطيفا مع المؤمنين رحبا بهم.

ويتعلم بها كبح عواطفه، وإلجام نزواته.

ويتعلم بها دروساً من الاخشيشان والقوة.

ويتعلم بها دروس العبودية لله.

ويتعلم بها كيف ينفق فى سبيل الله دون مقابل.

ويتعلم بها كيف يعظم ما عظمه الله. وكيف يحقر ما حقره الله.

ويتعلم بها أن يعادى من عادى الله، وأن يوالى من والاه.

٤ – والحج يحيى فى نفس الإنسان مشاعر كثيرة:

يحيى فيه مشاعر العطف على المسلمين، والانتصار لمأساتهم، ومشاعر الجيل الإسلامى الأول الذى عاش هنا، وحياة الاضطهاد من أجل العقيدة التى عاناها.
ومشاعر الولاء لله والرسول والمؤمنين.
ومشاعر التوجه الخالص لله.
ومشاعر التجرد عن الدنيا، والإقبال على الآخرة.
ومشاعر العزم على فتح صفحة جديدة مع الله.
٥ – وفى كل فعل من أفعال الحج عظات ومعان: إذا تحسسها الإنسان ولدت معه مفاهيم ربانية أكثر، وسلوكاً إسلامياً أجود، وتأسياً برسول الله أعلى:
مجمع الناس عرفات قبل طواف الركن، حيث يجتمع فى يومه كل من نوى الحج، ليبدأ كل الناس منطلقهم منه دفعة واحدة لتعظيم البيت، ثم يزدلفون منه نحو البيت إلى مزدلفة، وقد تابوا وأنابوا وأقبلوا على البيت بنفوس أطهر وأكثر شفافية.
ومن مزدلفة ينطلقون إلى منى، ليرموا الجمار قبل أن يطوفوا معلنين أن عدو الله هو عدوهم، ويذبحون لله شكراً على أن أباح لهم بهيمة الأنعام، ويحلقون استعداداً للطواف بنفوس نظيفة، وثياب نظيفة، ومنظر حسن.
ثم يطوفون بالبيت معظمين له، لتعظيم الله إياه ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج: ٣٢] ثم يسعون بين الصفا والمروة فعل أمهم الصالحة، يوم ابتدأ أمر التمهيد لبناء بيت الله.
ويخرج الإنسان من هذه المرحلة وقد ولد من جديد، ويرجع مرة ثانية ليرمى الجمار معلناً الشيطان بالعداء أولاً وآخراً.
٦ – والحج عودة بالمسلمين إلى مراكز الإسلام الأولى، دين إبراهيم ومحمد عليهما السلام. فتقوى فى المسلم رابطته بهذه المراكز، على أنها وطنه الروحى، وقبلته الوحيدة، ووجهة جسمه، ومنطلق تطلعاته، وآماله، فيرجع منه وقد تغيرت كثير من معالم صورة الحياة لديه، فبعد أن كان ارتباطه بمراكز الإسلام نظرياً، أصبح حقيقة وواقعاً، وحساً وعملاً، وفى النصوص التالية إشارات لمن تأمل.
روى الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير عن أبى الطفيل:
(قلت لابن عباس يزعم قومك إنه ﷺ سعى بين الصفا والمروة وأنه سنة. قال: صدقوا إن إبراهيم لما أمر بالمناسك اعترض له الشيطان، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع ثم تله للجبين، وعلى إسماعيل

قميص أبيض قال: يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره، فاخلعه حتى تكفننى فيه، فعالجه ليخلعه، فنودى من خلفه ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيض، أقرن، أعين، قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش. قال: ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيخان، فرماه بسبع حتى ذهب، ثم ذهب به جبريل إلى منى، قال: هذا منى مناخ الناس، ثم أتى به جمعاً قال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب به إلى عرفة، هل تدرى لم سميت عرفة؟ قلت: لا. قال: إن جبريل قال لإبراهيم هل عرفت؟ قال نعم فمن ثم سميت عرفة. هل تدرى لم كانت التلبية؟ قلت وكيف كانت؟ قال: إن إبراهيم لما أمر أن يؤذن فى الناس بالحج، خفضت له الجبال رؤوسها، ورفعت له القرى فأذن للناس بالحج).

روى الطبرانى فى الكبير قال ابن عمرو بن العاص:

(طوفوا بهذا البيت، واستلموا هذا الحجر، فإنهما كانا حجرين أهبطا من الجنة، فرفع أحدهما، وسيرفع الآخر، فإن لم يكن كما قلت، فمن مر بقبرى فليقل هذا قبر عبد الله بن عمرو الكذاب).

وروى البزار والطبرانى فى الكبير عن ابن عمر:

(أن النبى ﷺ أتاه فى مسجد منى رجل من الأنصار، ورجل من ثقيف، فقالا يا رسول الله جئنا نسألك فقال: إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه وإن شئتما أمسك وتسألانى فقالا: أخبرنا يا رسول الله. فقال للأنصارى: جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام وما لك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف وما لك فيهما، وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة وما لك فيه، وعن رميك الجمار وما لك فيه، وعن نحرك وما لك فيه وعن حلقك رأسك وما لك فيه، وعن طوافك بالبيت بعد ذلك وما لك فيه، فقال: والذى بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك قال: فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة. يقول: عبادى جاءونى شعثاً وغبراً من كل فج عميق يرجون جنتى، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل، أو كقطر المطر، وزبد البحر لغفرتها. أفيضوا عبادى مغفوراً لكم وعمن شفعتم له. وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات، وأما نحرك فمدخور لك عند ربك. وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها

حسنة، وتمحى عنك خطيئة. وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول: اعمل فيما يستقبل فقد غفر لك ما مضى). للبزار والكبير.

(عن ابن مسعود رفعه: تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه) النسائى والترمذى بلفظه.

(أبو هريرة رفعه: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة).

(وفى رواية: من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) للستة إلا أبو داوود.

(وعن أبى هريرة رفعه: الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم، وإن استغفروا غفر لهم) للقزوينى.

وبعد: فالحج إحياء لأخلد ذكريات ربانية عرفها البشر، ذكرى الأسرة التى لا تبالى فى الله بشىء، ذكرى الولد الذى يقدم نفسه قربانا لله، ذكرى الوالد الذى يقدم ابنه قرباناً لله، ذكرى الأم التى تثق برعاية الله ثقة لا حد لها، وتطيعه وتطيع سيدها طاعة لا حد لها. ذكرى التوكل الكامل، ذكرى العودة الفاتحة إلى البيت الذى أخرج من جوارها المستضعفون.

والحج ميزان يعرف به المهتمون بأمر المسلمين، حال المسلمين، فالأمة الإسلامية بما فيها من قوة أو خير، من ضعف أو جهل، من ذلة أو فقر، من عزة أو غنى، بما فيها من كل شىء، لا تعرف كما تعرف فى الحج.

والحج معول الهدم الأول، فى كل حاجز يوضع بين أبناء هذه الأمة، حاجز القومية، والوطنية، والمال، والجاه، والسلطان، والشيطان، كل هذا يزول بضربة واحدة من معول الحج العظيم.

والحج قبل هذا وبعده، طريق من طرق الخلاص من براثن الشيطان، إلى معية الرحمن، فالمسلم الذى يرمى الجمرة قبل طوافه بالبيت، ثم يطوف بالبيت، ثم يرجع ليرمى، لا شك أنه تحقق لو تأمل بقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولا شك أن علماء المسلمين، لو أحسنوا للحج وفى الحج، لكان الحج حلاً لكل مشاكل المسلمين.

(ب) صورة حديثية للحج :

قال ابن عباس (من السنة أن لا تحرم بالحج إلا فى أشهر الحج) البخارى .

وقال : وقت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم. قال : فهن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة فمن كان دونهن فمهله من أهله حتى أهل مكة يهلون منها) رواه الستة إلا مالكاً .

وروى ابن عمر (سئل رسول الله ﷺ ما يلبس المحرم؟ قال : لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة ولا البرنس ولا السراويل ولا ثوبا مسه ورس ولا زعفران ولا الخفين إلا أن لا يجد نعلين فليقطهما حتى يكونا أسفل من الكعبين) رواه الستة .

وقالت عائشة : (كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه) أبو داوود .

وللترمذى : (أن النبى ﷺ تجرد لأهلاله واغتسل) .

ولرزين : (أنه - أى النبى ﷺ - اغتسل لإحرامه ولطوافه بالبيت ولوقوفه بعرفة) .

وعن أبى بكر : (أنه خرج حاجاً مع رسول الله ﷺ حجة الوداع ومعه امرأته أسماء بنت عميس الخثعمية فلما كانوا بذى الحليفة ولدت أسماء محمد بن أبى بكر فأتى أبو بكر النبى ﷺ فأخبره فأمره أن يأمرها أن تغتسل ثم تهل بالحج وتصنع ما يصنع الناس إلا أنها لا تطوف بالبيت) النسائى . وقال ابن عمر : الحائض تهل بالحج والعمرة وتشهد المناسك كلها غير أنها لا تطوف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ولا تقرب المسجد حتى تطهر) مالك .

لأبى داوود عن ابن جبير : (قلت لابن عباس يا أبا العباس عجبت لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى إهلاله حين أوجب فقال : إنى لأعلم الناس بذلك إنما كانت من رسول الله ﷺ حجة واحدة، فمن هناك اختلفوا، خرج رسول الله ﷺ حاجا فلما صلى بمسجده فى ذى الحليفة ركعتيه، أوجب فى مجلسه فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه، فسمع ذلك منه أقوام فحفظته عنه، ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل وأدرك ذلك منه أقوام، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون أرسالاً، فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل فقالوا : إنما أهل حين استقلت به ناقته، ثم مضى فلما علا على شرف البيداء أهل وأدرك ذلك منه أقوام فقالوا : إنما أهل حين علا على شرف البيداء، وأيم الله لقد أوجب فى مصلاه، وأهل حين استقلت به ناقته، وأهل حين علا شرف البيداء، قال ابن جبير فمن أخذ بقول ابن عباس أهل فى مصلاه إذا فرغ من ركعتيه) .

ولأبى داوود والنسائى عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ :

(يلبى المقيم أو المعتمر حتى يستلم الحجر) .

وللستة عن ابن عمر (سمعت رسول الله ﷺ يهل ملبيا يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، لا يزيد على هذه الكلمات).

وروى أبو داوود عن جابر مثل هذا وزاد جابر:

(والناس يزيدون ذا المعارج ونحوه من الكلام والنبى ﷺ يسمع ولا يقول شيئاً).

وروى الشيخان وأبو داوود والنسائى عن ابن عمر قال:

(تمتع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج فأهدى فساق معه الهدى من ذى الحليفة وبدأ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج، وتمتع الناس معه. فكان منهم من أهدى، ومنهم من لم يهد، فلما قدم مكة قال للناس: من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم عليه حتى يقضى حجة، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل، ثم ليهل بالحج وليهد، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله. وطاف رسول الله ﷺ حين قدم مكة فاستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف من السبع، ومشى أربعة، ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين، ثم سلم، فانصرف فأتى الصفا، فطاف بالصفا والمروة سبعة أطواف، ثم لم يحل من شيء حرم منه حتى قضى حجه، ونحر هديه يوم النحر، وأفاض فطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه، وفعل مثل ما فعل رسول الله ﷺ من أهدى فساق الهدى من الناس).

وروى مسلم وأبو داود والنسائى عن جابر قال:

(إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس فى العاشرة أنه حاج. فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم به، ويعمل مثل عمله. فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبى بكر فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ قال اغتسلى واستثفرى بثوب وأحرمى. وصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ثم ركب القصواء حتى استوت به على البيداء نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به. فأهل بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك، وأهل الناس بهذا الذى يهلون به فلم يرد عليهم ﷺ شيئاً منه ولزم ﷺ تلبيته لسنا ننوى إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ [البقرة: ١٢٥] فجعل المقام بينه

وبين البيت، فكان أبى يقول ولا أعلمه ذكره إلا عن النبى ﷺ كان يقرأ فى الركعتين ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١]، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، قال هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى رمل، حتى إذا صعدنا مشى، حتى إذا أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طواف على المروة قال: لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة، فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الآخرة وقال: دخلت العمرة فى الحج هكذا مرتين لا بل للأبد، وقدم على من اليمن ببدن النبى ﷺ، فوجد فاطمة ممن حل ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت أبى أمرنى بهذا. وكان على يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً على فاطمة للذى صنعت مستفتيا له فيما ذكرت منه، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها، فقالت أبى أمرنى بهذا فقال صدقت صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال قلت اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك ﷺ. قال: فإن معى الهدى فلا تحل، قال: فكان جماعة الهدى الذى قدم به على من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ مئة. فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة، فسار ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية فأجاز ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له. فركب فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية

موضوع وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله. واتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعد إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسئلون عنى فما أنتم قائلون. قالوا نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت فقال: بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم أشهد اللهم أشهد. ثلاث مرات، ثم أذن بلال ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حين غاب القرص. فأردف أسامة خلفه، ودفع ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله. ويقول بيده: أيها الناس السكينة السكينة، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً. ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة. ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فرقى عليه، فاستقبل القبلة، فحمد الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر، أبيض وسيما، فلما دفع ﷺ مرت ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه من الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلا ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج إلى الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها كحصى الخزف، رمى من بطن الوادى، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر، وأشركه فى هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت فى قدر، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، فأتى بنى عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فقال: أنزعوا بنى عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه). لمسلم وأبى داوود والنسائى.

(وفى رواية: قال ﷺ: نحرت هاهنا ومنى كلها منحر، انحروا فى رحالكم، ووقفت هاهنا وعرفة كلها موقف. ووقفت هاهنا والجمع كلها موقف).

(عن ابن عباس: أن أسامة كان ردف النبى ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى وكلاهما قال لم يزل النبى ﷺ يلبى حتى رمى جمرة العقبة). للستة إلا مالكا.

(عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان إذا رمى الجمرة التى تلى المنحر ومسجد منى رماها بسبع حصيات ويكبر كلما رمى بحصاة ثم تقدم أمامها فوقف مستقبلاً للقبلة رافعاً يديه ويطيل الوقوف، ثم يأتى الجمرة الثانية فيرميها بسبع حصيات، يكبر كلما رمى بحصاة، ثم ينحرف ذات الشمال، فيقف مستقبلاً القبلة رافعاً يديه يدعو، ثم يأتى الجمرة التى عند العقبة، فيرميها بسبع حصيات ولا يقف عندها). للبخارى والنسائى.

(عن عبد الرحمن بن زيد: رمى ابن مسعود جمرة العقبة من بطن الوادى بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، فقيل له إن أناساً يرمونها من فوقها فقال: هذا والذى لا إله غيره مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة). للستة إلا مالكاً.

(عن ابن عباس: قال لى رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على راحلته: هات ألقط لى. فلقطت له حصيات من حصى الخزف فلما وضعتهن فى يده قال: بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين). للنسائى.

(عن جابر: رأيت رسول الله ﷺ يرمى يوم النحر ضحى، وأما بعد ذلك فبعد زوال الشمس). للستة إلا مالكا.

(عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى منى فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس).

(عن على: نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها، وزاد رزين: فى الحج والعمرة وقال إنما عليها التقصير).

(عن ابن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ وقف فى حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح قال اذبح ولا حرج فجاءه آخر فقال لم أشعر فنحرت قبل أن أرمى قال ارم ولا حرج فما سئل يومئذ عن شىء قدم أو أخر إلا قال افعل ولا حرج). للستة إلا النسائى.

(وللشيخين: قال: حلقت قبل أن أرمى قال ارم ولا حرج وأتاه آخر فقال: إنى ذبحت قبل أن أرمى فقال ارم ولا حرج وأتاه آخر فقال: إنى أفضت إلى البيت قبل أن أرمى قال ارم ولا حرج).

(عن ابن عباس: أن النبى ﷺ قيل له فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير فقال لا حرج). لأبى داوود والنسائى والشيخين بلفظهما.

(وفى رواية : رميت بعد ما أمسيت فقال لا حرج) .

(وفى رواية : زرت قبل أن أرمى قال لا حرج) .

(عن عمر : خطب الناس فى عرفة فقال : إذا جئتم منى غداً فمن رمى الجمرة فقد حل له ما حرم على الحاج إلا النساء والطيب لا يمس أحد نساء ولا طيباً حتى يطوف بالبيت) لمالك .

(عن ابن عباس قال : إذا رمى الجمرة فقد حل له كل شىء إلا النساء قيل والطيب ؟ قال : أما أنا فقد رأيت رسول الله ﷺ يتضمخ بالمسك أو طيب هو ؟) للنسائى .

(عن جابر : كنا نتمتع مع رسول الله ﷺ بالعمرة فنذبح البقرة عن سبعة نشترك فيها) .

(عن مالك : بلغه : أن النبى ﷺ قال بمنى : هذا المنحر وكل منى منحر ، وقال : فى العمرة هذا المنحر – يعنى المروة – وكل فجاج مكة وطرقها منحر) .

(عن جابر : كنا لا نأكل من لحوم بدننا فوق ثلاث . فأرخص لنا رسول الله ﷺ فقال : كلوا وتزودوا) .

(وفى رواية : كنا نتزود لحم الهدى على عهد رسول الله ﷺ إلى المدينة) . للشيخين .

(عن على : أمرنى رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنه وأتصدق بلحمها وجلودها وأجلتها ولا أعطى الجزار منها وقال : نحن نعطيه من عندنا) . للشيخين وأبى داوود .

(عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قدم مكة وهو يشتكى فطاف على راحلته كلما أتى على الركن استلمه بمحجن فلما فرغ من طوافه أناخ وصلى ركعتين) .

(ولمسلم وأبى داوود عن جابر قال : طاف رسول الله ﷺ فى حجة الوداع على راحلته بالبيت يستلم الحجر بمحجن وبين الصفا والمروة ليراه الناس وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه) .

(وروى البخارى عن ابن عباس قال : يا أيها الناس اسمعوا منى ما أقول لكم وأسمعونى ما تقولون ولا تذهبوا فتقولوا قال ابن عباس . قال ابن عباس من طاف بالبيت فليطف من وراء الحجر ولا تقولوا الحطيم فإن الرجل فى الجاهلية كان يحلف فيلقى سوطه أو نعله أو قوسه) .

(روى البخارى عن ابن جريج : أخبرنى عطاء أن منع ابن هشام النساء الطواف مع الرجال قال : كيف يمنعهن وقد طاف نساء النبى ﷺ مع الرجال قلت أبعد الحجاب أو قبله ؟ قال : لقد أدركته بعد الحجاب قلت : كيف يخالطن الرجال ؟ قال : لم يكن يخالطن كانت عائشة تطوف حجزة من الرجال لا تخالطهم فقالت امرأة انطلقى

نستلم يا أم المؤمنين قالت: انطلقى عنى وأبت وكن يخرجن متنكرات بالليل فيطفن مع الرجال..).

(روى الإمام أحمد عن سعيد بن مالك قال: طفنا مع رسول الله ﷺ فمنا من طاف سبعا، ومنا من طاف ثمانيا، ومنا من طاف أكثر من ذلك فقال النبى ﷺ: لا حرج).

(ولمالك والنسائى عن جابر قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا نزل من الصفا مشى حتى إذا انتصبت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى خرج منه).

وبعد: هذا هو الأساس.

أن أساس الإسلام هذه الأركان الخمسة. بها يعرف إسلام الإنسان، وبها يعرف إسلام الشعب، وبها يعرف إسلام الحكم، وبها يعرف إسلام الأمة، وبدونها لا يقوم إسلام لا فى نفس الفرد ولا فى نفس الشعب، ولا فى نفس الحكم، ولا فى نفس الأمة.

فالإنسان الذى لا يشهد الشهادتين مؤدياً مضمونهما، مجتنباً نواقضهما، مصلياً لله بعدهما مزكياً صائماً حاجاً كيف يقوم الإسلام عنده أو به قياماً صحيحاً.

والشعب الذى لا يربى على الإسلام لله بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، لا يطمع منه أن يؤدى واجبات الإسلام الأخرى.

والحكم الذى لا يستسلم كل فرد لله فيه بهذه الأركان، والذى لا يسعى جاهداً لإحيائها والتشجيع عليها، أو الذى يقف حاجزاً دونها، فلا يسمح بحج، ويشجع على الفطر، ولا يأخذ زكاة ويؤتيها، ولا يبالى بصوم، ويتبنى شعارات تناقض الشهادتين كيف يكون إسلامياً، وكيف يطمع منه بأن يقيم الإسلام. ومن أفظع ما وقع فيه المسلمون من أوهام وأخطاء، أنهم أوصلوا باختيارهم أحياناً إلى سدة الحكم ناساً من أبناء المسلمين لا يؤمنون بغيب، ولا يقيمون صلاة، ولا يؤتون زكاة، ولا يصومون ولا يحجون، وهم يطمعون منهم أن يجعلوا الإسلام دين دولتهم الرسمى، عقيدة ونظاماً نصاً وروحاً، إنه لا إسلام بلا مسلمين، ولا مسلمون وأركان الإسلام مهدمة فى نفوسهم.

والأمة التى تهدمت أركان الإسلام فى أنفسها، أمة لم يعد لها من الإسلام إلا اسمه.

وإذا كانت المسألة هكذا، فلابد من أن يعيد المسلمون الحقيقيون النظر فى كثير من الأمور، ويجهدوا من أجلها، فيقيموا أركان الإسلام فى أنفسهم إقامة أجود ويزنون بها الناس أكثر، ويجهدون فى الدعوة لقيامها أكثر الجهد، إذ أن هذه المرتكزات لو قامت قياماً صحيحاً، واستفيد من الحركية التى تتمخض عنها - فى اجتماعات

المسلمين لصلواتهم، وفى مساجدهم وجمعهم، وفى المال العظيم المتجمع عن طريق الزكاة، وفى رمضان الذى هو شهر الإنطلاق، وفى الحج الذى هو التذكير العملى بالمنهج النظرى والسياسى للإسلام، لصلح أمر المسلمين.

كما أن عليهم أن يجهدوا فى تبيانها وتوضيحها، وأن يؤكدوا أنها الميزان الذى يجب أن يزن به المسلمون إسلام الحاكمين والمحكومين وإسلام الحكم.

ولكن كما يجب التركيز على هذه الأركان الخمسة من حيث مضمونها، فيجب التركيز كذلك على أنها أركان الإسلام وأساسه، وليست كل الإسلام، بل الإسلام بناء يقوم على هذه الأركان، فمهما كانت أهمية الركن، فإنه لا يستغنى به عن البناء، فالتركيز على أهمية الركن ينبغى أن يرافقه التركيز على أنه ركن فحسب، وأن هذا الركن ينبغى أن يقوم عليه بناؤه، وأن المسلم بدون هذا يكون كمن بنى الأساس فى أرض ثم أبقاه ولم يبن عليه، فيكون هذا عجيباً: أساس قد عطل عن البناء عليه.

والفصول الثلاثة الآتية إنما تفصل موضوع البناء بعد الأركان فإلى الفصل الأول منها:

(المنهاجان الاجتماعى والأخلاقى فى الإسلام) الذى جعلناه هو الباب الأول من انفصل الثالث، الجزء الثانى من الأصل الثالث.

* * *

